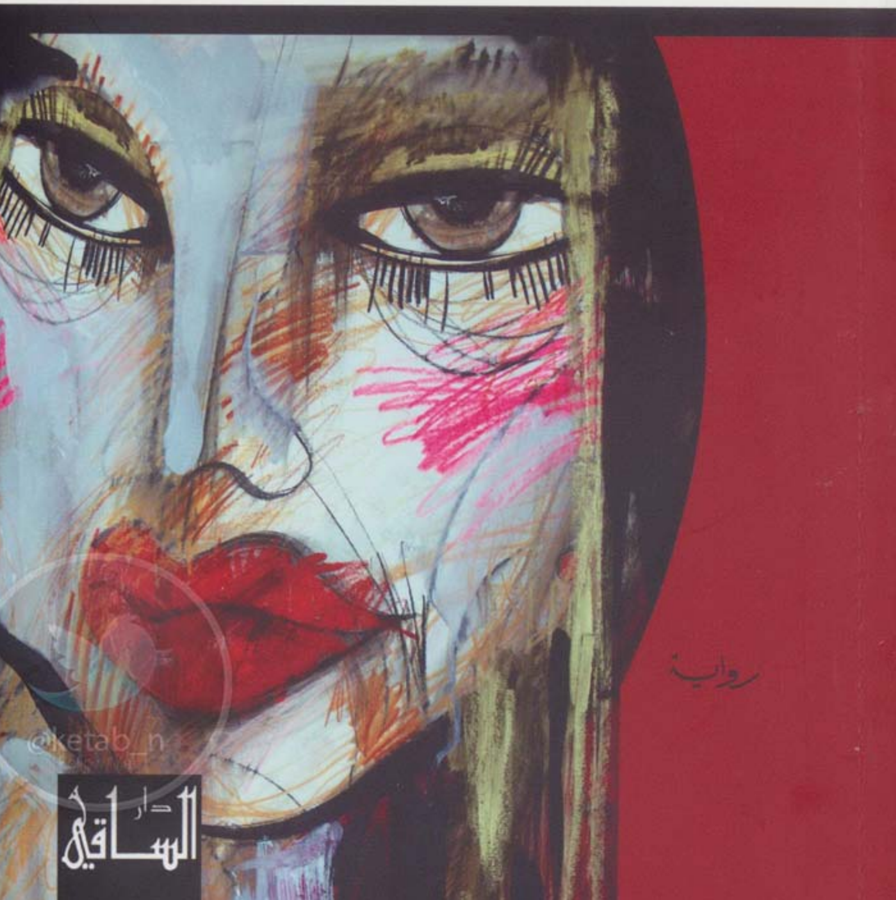
جائزة غونكور الفرنسية 2008

حجر الصبر

عتيق رحيمي



رواية

دار الساقي

عتيق رحيمي

حجر الصّبر

ترجمة صالح الأشمر

دار الساقي

حجر الصّبر

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

Atiq Rahimi, *Syngué sabour (Pierre de patience)*

الطبعة العربية

الطبعة الأولى، 2013

ISBN 978-1-85516-957-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

كُتِبَت هذه الرواية إحياءً لذكرى ن. أ– شاعرة أفغانيّة قُتِلَتْ بوَحْشِيَّة على يَدِ زَوجها– وهي مُهداة إلى م. د.

"مِنَ الجسَدِ وبالجسدِ ومَعَ الجَسدِ مُنذُ الجَسَدِ وحتّى الجَسد."

أنطونِين أرْتو

في مكانٍ ما مِن أفغانِستان أو أيِّ مكانٍ آخر

الغرفة صغيرة، مُستطيلة. جوُّها خانق على الرَّغم مِن جُدرانها المطليَّة بلونٍ فاتح، أزرق مُخضَرّ، وستارتَيْها المزيَّنَتينِ بتصاوير طيور مُهاجرة تجمّدت أجنحتُها المُحَلِّقة وسط سماءٍ صفراءَ وزرقاءَ، تتخَلَّلها ثقوبٌ مُتفرِّقةٌ تنفُذ منها أشعَّةُ الشمس لِتنتهي على الخطوط الهامدَة لِبساط شرقي مُضلَّع. وفي أقصى الغرفة ستارةٌ أخرى، خضراء، مِن غير زخارِف، تُخفي باباً مَسْدوداً، أو حُجْرةَ مُهمَلات.

الغرفةُ فارغة، خالية من أيّ زينة سِوَى ما على الجدارِ الفاصل بين نافذتين حيثُ عُلّق خِنجَرٌ صغير، وفوقَ الخنجر صورةٌ شَمسيَّةٌ، هي صورة رجل كثّ الشارب. لَعلَّه في الثلاثين من العُمر. مُجعَّد الشَّعْر، ذو وَجهٍ مُربَّع، مُؤطّرٍ بسالِفَيْنِ مُشَذَّبَيْنِ بِعناية. تلمع عيناه السوداوان الصغيرتان اللتان يفصل بينهما أنفٌ معقوفٌ كمِنْقارِ نَسْر. الرجلُ لا يضحكُ، غير أنّه يَبدو كَمَنْ يكبِتُ ضَحكَه، ما يُضفي عليه سيماءَ رَجُلٍ يَسْخَرُ في قرارةِ نَفْسه مِنَ الشخصِ الذي ينظُر إليه في الصورة. وهي صورة أُخذَتْ بالأسودِ والأبيض، وَلُوِّنَتْ تَلْويناً حِرفيّاً بأصباغ باهتة.

قُبالةَ تلك الصورة، أسفلَ جِدارٍ، تمدَّدَ الرجلُ نفسُه، الأكبرُ سِنّاً الآنَ،

على فِراشٍ وُضِعَ على وَجْه الأرض. الرجلُ مُلْتَحٍ، غزا الشَّيْبُ لحيَتَه، ونَحُلَ جسْمُه كثيراً؛ فهو الآنَ جِلْدٌ على عَظْم. شاحِب. مَلِيء بالتجاعيد. وبات أَنْفُه أكثرَ شبهاً بمِنْقار نَسْر. لم يَعُد ذلك الرجلَ الضَّحُوك، غيرَ أنّه ما زال مُحْتفظاً بسيماء الساحرِ الذي كانَه. فَمُه مُنْفَرِجٌ. عيناه اللتان ازدادتا صِغراً غائرتان في مَحْجِرَيْهما. نَظَرُه مُثبتٌ على السَّقْف، وسطَ العوارِض الظاهِرة، المُسْوَدَّة والمُتَعَفَّنة. ذراعاه الساكنتان مَمْدُودتان على طُول قامته. وتحتَ جِلْدِه الشفّاف تتشابكُ عُروقُه، الشَّبيهةُ بديدان لاهثة، مع عظامه البارِزة. في مِعْصَمه الأيْسَر ساعةٌ آليَّة، وفي بِنْصَره مِحْبَسُ زواجٍ ذَهَبيٌّ، وفي ذِراعِه اليُمْنَى النَّحيلة غُرِزَتْ إبْرَةٌ مُتَّصلةٌ بأُنبوبَة تَحْقُنُه بسائلٍ لا لَوْنَ له يَتَقَطَّر من كيسٍ بلاستيكيّ مُعلَّقٍ فوق رأسه تماماً. وما تَبَقَّى من جسده مُغطّىً بِقَميصٍ طَويلٍ أزرقَ، مُطرَّزٍ عند ياقته وكُمَّيْه. أمّا ساقاه المُتصلِّبتان كوَتدَيْنِ فيُغطِّيهما شَرْشفٌ أبيضُ مُتَّسِخ.

على إيقاعِ تَنفُّسه تَهْتَزّ يَدٌ، هي يدُ امرأة، موضوعةٌ على صَدْرِه، فوقَ قلبه، ورأسُها بين رُكْبَتَيْها. وشعرُها الأسودُ، الحالِكُ، الطويلُ، يُغطّي كَتِفَيْها المُتمايلتَين، تَبَعاً لحركة ذراعِها المُنْتَظِمَة.

في اليدِ الأخرى، اليدِ اليُسْرى، تمسكُ مِسْبَحةً طويلةً سَوداء، تُسبِّح بها، بهُدوء، وبطْء، بالْوَتيرَة ذاتها التي تَتَمايل بها كتفاها، أو على إيقاعِ تَنفُّسِ الرجُل. جسَدُها مُلْتَفٌّ بثَوْبٍ طويل، أحمر أُرْجُوانيّ، مُزيَّن عند الكُمَّيْنِ والحاشيةِ ببَعْض الأشكالِ الزُّخْرُفيّة الخفيفة من سَنابِلِ القمْح وأزهارِه.

على مَخدَّةٍ مِن المُخْمَلِ وُضِعَ في مُتناوَلِ اليدِ كتابٌ، هو القُرآن، مَفْتوحاً على صفحةِ الغلاف.

تبكي فتاةٌ صغيرة. ليست في تلك الغُرفة. لعلَّها في الغُرفةِ المُجاوِرَة، أو في الرَّواق.

يَتحرَّكُ رأسُ المرأة، مُتْعَباً. ويَتْرُكُ ثُغْرَةَ الرُّكْبَتَيْن.

المرأةُ جميلةٌ. عند زاوية عَيْنِها اليُسْرَى تماماً نَدَبَةٌ صغيرة، من أثرِ جُرح، تُقلِّصُ بعضَ الشيء مدَى أجْفانها، وتُضْفي على نَظرها مَسْحَةً من قلق غريب. وشَفتاها المُكْتَنِزتانِ تُتَمْتِمان بصوتٍ خافِتٍ، وبِبطء، كلمةَ صلاة واحدة.

تبكي فتاةٌ صغيرةٌ ثانية. يَبْدو أنَّها أقرب من الأولى، خَلْفَ الباب، بلا رَيْب.

تَسْحَبُ المرأةُ يدَها مِن علىَ صَدْرِ الرجُل. تنهضُ وتغادرُ الغُرفة. لا يُغَيِّرُ غِيابُها الوضعَ في شيء؛ فالرجلُ ما زال لا يتحرَّك، وما زال يتنفَّسُ بِصَمْت، وبِبطْء.

أسْكَتَ وَقْعُ قَدمَيّ المرأة الطفلتَين. مكثتْ بِقُربهما وقتاً طويلاً، إلى أن اسْتَحال المنزلُ، والعالَمُ، إلى ظِلال في رُقادِهما؛ ثُمَّ عادَتْ أدْراجَها. في إحدى يدَيها قارورة بيضاء، وفي الأخرى المِسْبحة السوداء. عادتْ لتجلس جِوارَ الرجل، وتفتح القارورة، وتميل عليه لتقطُرَ في عَينه اليُمنى قَطْرتَين، وفي اليُسرَى قَطْرتَين، من دون أن تَترُكَ مِسْبَحتَها، أو تكُفَّ عن التَّسْبيح.

أشعَّةُ الشمس، المارّةُ عَبْرَ ثقوبِ السماء الصفراء والزرقاء التي على الستارتَين، تُداعِبُ ظَهْرَ المرأة، وتُلامِسُ كَتفَيها اللتَين ما زالتا تَتمايلان بانتظام، على إيقاع تساقُط حبّات المِسْبَحة من بَين أناملها.

من بعيد، من مكانٍ ما في المدينة، يُسْمَعُ دَوِيُّ انْفجار قُنبلة. انفجار

عنيف لعلّه دمَّر بعضَ المنازل، وبعضَ الأحلام. يُرَدُّ على القَصْفِ بمثله. وتُمزِّقُ الانفجاراتُ المُضادَّةُ صَمْتَ الظهيرة المُطبِق، وتَرُجُّ زُجاجَ النوافذ، من دون أن تُوقظَ الطفلتَين. إلاّ أنَّها جمَّدت لبُرْهَة - البرهة اللازمة لإسْقاط حَبَّتَين من حبّاتِ المِسْبَحة - كتِفَي المرأة. ثمّ وضَعتْ قارورة القَطْرِ في جَيبها. وتمْتَمت "القهّار"، وكرَّرت "القهار". وراحَتْ تُرَدِّدُ الكلمةَ مع كلِّ نَفَسٍ من أنفاس الرجل. ومعَ كلِّ كلمةٍ تُسقِطُ من بين أناملها واحدةً من حبّات المِسبحة.

أتمَّتْ دورةً كاملة من التسْبيح، أسقطتْ خلالها تِسْعاً وتِسْعين حَبَّةً، مُردِّدةً تسعاً وتسعين مرّةً "القهّار".

نهضتْ لِتعودَ إلى مكانها على الفراش، قُبالةَ رأس الرجل، ولِتَضعَ من جديد يدَها على صدره. وبدأت دورةً جديدةً من التسبيح.

عندما أكملت للمرَّة الثانية ترديدَ كلمة "القهّار" تسعاً وتسعين مرّةً، ارتفعت يدُها عن صَدْرِ الرجل لِترقَى إلى عُنُقه. غاصتْ أصابعُها أوّلاً في شَعرِ لِحْيَته الكثّة، حيث بَقِيَتْ مدَّةَ نَفَسٍ أو اثنَين. ثم ظهرتْ لتمتدَّ إلى الشفتَين، وتُلامسَ الأنْفَ، والعينَين، والجبهةَ، ولِتَنْدَسَّ أخيراً في شَعر رأسه الكثيف المُتَّسِخ. "هل تَشعُر بِيَدي؟" قالت وقد أَحْنَتْ جسدَها، ومالتْ على الرجل، شاخصةً إليه.

لا إشارة. قرَّبتْ أُذنَها من شَفتَيه. لا إشارة. ما زال على تلك الهيئة التائهة: فَمٌ مُنْفَرِج، ونظرةٌ شاردة بين عوارِض السقْف المُظلمة.

زادتْ انحناءً لِتَهمسَ: "باسم الله، أعطني إشارةً لِتُعلِمَني أنّكَ تشعُر بِيَدي، وأنّكَ تحيا، وأنّكَ تعود إليَّ، إلَيْنا! إشارة فقط، إشارة بسيطة تَمنحُني شيئاً مِن القُوَّة، ومِن الإيمان". تَرْتَعِشُ شفتاها، وتتوَسَّلان: "كلمة

فقط...» ثُمَّ تُلامِسانِ أُذنَ الرجلِ وتَهْمِسانِ "أرجو على أيّ حال أن تسمعُني". وتُلقي برأسها على المِخدَّة.

"قالوا لي إنّه في ظرف أُسبوعَين سيكون بإمكانك أن تتحرَّك، أن تُعطي إشارات... لكنْ ها نحن في الأسبوع الثالث... أو تقريباً. ولا شيء دائماً". يَسْتدير جَسدُها لِتَنْقَلِبَ على ظهرِها. ويشرُد نظرُها حيثُ شردَ نظرُ الرجل، في مكانٍ ما بين العوارِض السوداء والمُتَعفِّنة.

"القهّارُ، القهّارُ، القهّار"

تنهضُ المرأةُ بِبطء. تُحَدِّقُ في الرجل بيأس. تضع يدَها على صَدْره مُجَدِّداً "إن كان بوِسْعِكَ أن تَتنفَّس فبِوسعك أن تَحْبِسَ نَفسَك، أليسَ كذلك؟ احبِسْهُ!" تَرُدُّ شعرَها وراء رقبتِها وتُلِحُّ: "احبِسْه مرّةً واحدةً فقط!" ومجدّداً تُدْني أذنَها من فَمه. تَصْغي إليه. تسمعه. إنّه يتنفَّس.

تُغَمْغِمُ وقد أَسْقطَ في يدِها: "ما عُدْتُ أحتمِل".

تَتنهَّد من غيظ، ثمّ تنهض فجأةً، وتُكرِّر بصوت مرتفع: "ما عُدْتُ أحتمِل" خائرةَ القُوى. "من الصباح إلى المساء أَتْلُو أسماءَ اللهِ الحُسْنى، ما عُدْتُ أحتمِل!" تتقدَّم بِضْعَ خُطوات نحو الصورة، من دون أن تنظر إليها: "مَضى على هذه الحال سِتّةَ عَشرَ يوماً..."، تتردّد "لا..." وتَعُدُّ على أصابعها غيرَ مُتَيقِّنة.

تَلتفتُ إلى الوراء مُرتبكةً، وتعودُ إلى مكانها لِتُلقي نظرةً على صَفْحَة المُصحف المفتوحة. تُراجِع "سِتَّةَ عشرَ يوماً... عليَّ اليومَ أن أَتْلو اسمَ الله، السادسَ عشرَ، القهّار. هذا هو حقاً، الاسمُ السادسَ عشرَ..." تُفكِّر في الأمر "سِتّةَ عشرَ يوماً!" تَراجَع. "سِتَّةَ عشرَ يوماً وأنا أحيا على إيقاع تنفُّسِكَ" تقولُ بِعُدْوانيّة. "سِتّةَ عشرَ يوماً وأنا أتنفَّسُ معك"

تُحَدِّقُ في الرجل. "أتنفَّسُ مثلما تتنفَّسُ، اُنظُرْ!" تأخذُ نَفَساً عميقاً، ثُم تَزْفِرُه مُتَألِّمَةً، على إيقاع تَنَفُّسه. "حَتّى وإنْ لم تكُنْ يدي على صَدْرِك يمكنني الآنَ أن أتنفَّسَ مثلك" تنحني عليه "وحتّى إنْ لم أكنْ بجانبك فأنا أتنفَّسُ على إيقاع تَنفُّسك بالذات". تَتنحَّى عنه "أتَسْمعُني؟" ثُمّ تأخذ في الصُّراخ: "القهّار"، وتَستأنف التَّسبيحَ، بذاتِ الإيقاع دائماً. وتخرج من الغُرفة. وفي الرِّواق وخارجه يُسْمَعُ صوتُها:

"القهّار..." يبتعد الصوت.

"القهّار..." يغدو خافتاً.

"القهّار..." لا يُدْرَك.

يختفي.

مَرَّت لحظات من الصمت. ثَمَّ عاد صدّى "القهّار" يرتطم بالنافذة، ويتردّد في الرِّواق، وخلفَ الباب. دخلت المرأة الغرفة وتوقّفت على مَقرُبَةٍ منَ الرجل، مُنْتَصِبَة. ما زالت أصابعُ يدها اليُسْرى تُساقِطُ حبّاتِ المِسْبَحة السوداء. "يُمكنني حتَّى أن أقولَ لك إنّك تَنفَّسْتَ في غيابي ثلاثاً وثلاثين مرّة". قرفصتْ. "وحتّى هنا، في هذه اللحظة، وأنا أكلِّمك يمكنني أن أُحصي أنفاسَك" رفعت المِسْبَحَة لتجعلَها في المجال غير المحقَّق لِنظرة الرجل. "اُنظر، منذ وصولي، تنفَّسْتَ سبعَ مرّات". جلستْ على البساط ومَضتْ تقول: "أيّامي ما عُدْتُ أقسِّمُها إلى ساعات، ولا الساعات إلى دقائق، ولا الدقائق إلى ثوانٍ... إنّ يوماً عندي يُساوي تِسْعاً وتِسْعينَ دورةَ تَسْبيح!". استقرَّ نظرُها على ساعة اليد التي تمسك عظام مِعْصَم الرجل وقالت: "بإمكاني حتَّى أن أقول

لك إنّه ما زال أمامنا خمسُ دورات من التسبيح قبل أن يرفعَ المُلاّ أذانَ صلاةِ الظهر ويُلقي عِظَته". مَرّتْ لحظة، أجرت خلالها الحساب، "في الدورة العشرين سوف يقرعُ السقّاءُ بابَ الجيران. وكالمُعتاد، سوف تخرج الجارةُ العجوز ذات السُّعال الأبَحّ لكي تفتح له الباب. وفي الدورة الثلاثين سوف يعبُر الشارعَ صبيٌّ على درّاجته الهوائية صافِراً لحنَ "لَيْلي، لَيْلي، لَيْلي جان، جان، جان، لقد حَطّمتِ قلبي"... مُسْمِعاً بِنتَ جارِنا..." تضحكُ، ضحكةً حزينة "وعندما أصِلُ إلى الدورة الثانيةِ والسَّبْعين، سوف يأتي هذا المُلاّ الغبيُّ لعيادتكَ، وكما في كلّ مرّة، سوف ينهالُ عليّ بالمَلامةِ لأنّني، في زَعْمه، لم أعْتَنِ بك جيّداً، ولم أتّبِعْ تعليماته، وأهملتُ الصلوات... وإلاّ لَكُنْتَ قد شُفيتَ" تُمرِّرُ يدَها على ذراعِ الرجل. "لكنّك أنت شاهد. تعلم أنّني لا أعيش إلا من أجلك، بِقُربك، مع تنفُّسكَ!" وتعترض: "ما أسهلَ القول: يجب ترديد واحد من أسماء الله الحُسْنى تِسْعاً وتسعين مرّةً في اليوم، وذلك خلال تِسعة وتسعين يوماً. لكنّ هذا المُلاّ الغبيّ لا يعرف معنى البقاء وحيدة مع رجل يـ..." لا تجد الكلمةَ المناسبة، أو لا تجرؤ على النُّطق بها، "معنى البقاء وحيدة مع بِنتَين صغيرتَين" غمغمتْ خِفْيَةً.

رانَ صمتٌ طويل. طولَ خمس دورات، من التسبيح تقريباً. خمس دورات بقيت المرأة في أثنائها مُستندَة إلى الجدار، مُغمَضةَ العينَين. إلى أن انتزعَها من خَدرِها أذانُ صلاةِ الظهر، فتناولتِ السجّادَة الصغيرة، ومدّتها على الأرض، وشرعت في الصلاة.

بعد أداء الصلاة، ظلّت جالسة على السجادة، لكي تَستمعَ إلى المُلاّ وهو يَعِظُ مُتناوِلاً هذا اليومَ من أيام الأسبوع: "... واليومُ هو يومٌ دامٍ،

لأنّه في يومِ ثُلاثاء نَزفتْ حوّاءُ دماً نَجِساً للمرّة الأولى، وفيه قَتل أحدُ ابنَي آدمَ أخاه، وقُتِلَ غريغوار، وزكريّا، ويَحْيى - عليهم السلام - وكذلك سَحَرةُ فِرْعَون، وآسِيا بِنت مُزاحِم، زوجةُ فِرعَون، وعِجْلُ بني إسرائيل...»

أجالت النظرَ في ما حولَها بِبطء. تأمّلت الغرفةَ، رجُلَها، هذا الجسدَ الممدَّد في الفراغ، هذا الجسدَ الفارغ.

اجتاح القلقُ نظرتَها. نهضت. طوَت السجّادة، وأعادتها إلى مكانها، في إحدى زوايا الغرفة. وغادرتْ.

عادت بعد لحظات، لتتفحَّص مُستوى المَصْلِ في كيس الحَقْن. بَقِيَ فيه القليل. أدامت النظرَ في القطّارة، وراقبت المدّة الفاصلة بين القَطْرة والقطرة. كانت قصيرة، أقصرَ من تلك التي تَنْتَظِمُ تَنفُّسَ الرجل. ضَبطت السَّيلان، وانتظرت مرور قَطْرَتَين، ثم انسحبت بِخُطىً حازمة «أنا ذاهبة إلى الصيدلية بحثاً عن المصل». لكن قبلَ أن تجتازَ عتبَةَ الباب اضطربت ساقاها، وباح صوتها بشكوى: «آمُلُ أن يكونوا قد حصلوا عليه...». ثم غادرت الغرفة. وسُمعت وهي تُوقظُ البنتَين: «تعاليا، سوف نخرج». ومضتْ تَتبعُها الخطوات الصغيرة الراكضة في الرِّواق، وفي الباحة.

بعد ثلاث دورات من التسبيح، ومِئتَين وسبعين نَفَساً، عُدْنَ.

أخذت المرأة الطفلتَين إلى الغرفة المجاوِرَة. «ماما، أنا جائعة» بكتْ إحداهما. «لماذا لم تَشتَري موزاً؟!» ناحت الأخرى. «سوف أُعطيكما خُبزاً» واستَهما الأمُّ.

عندما سَحبت الشمسُ أشعَّتَها المُنيرة من ثُقوب السماء الصفراء والزرقاء التي على الستارة، عادت المرأة للظهور على عتبة الغرفة. ألقت

نظرةً مديدةً على الرجل، ثم اقتربت منه وفحصت تنفُّسه. إنّه يتنفَّس. كان كيس الحقْن على وشك النضوب. "كانت الصيدلية مُغلقَة" قالت، وبهيئة المُسْتَسلم انتظرت، كما لو أنها تتوقَّع صدورَ تعليمات أخرى. لا شيء. لا شيء سوى تردّد الأنفاس. غادرت مجدّداً لتعود حاملةً كأس ماء. "يجب أن نعمل كما في المرّة الأخيرة، بالماء المُحلّى - المُمَلَّح..."

بحركة سريعة وماهرة نزعت المسبارَ من ذراعه، وسحبت إبرةَ الحَقْن. ثم نظّفتِ الأُنْبُوبَة وأدخلتها في الفَم الفاغر، ودفعتها حتّى بلغت القناةَ الهضميّة. بعدها سكبت محتوى الكأس في كيس الحَقْن. وضَبطت تعاقُبِ القطرات، وتحقّقت من المُدّة الفاصلة في ما بينها. لكلّ نَفَسٍ قَطْرَة.

وغادرت.

بعد حوالي عشر قطرات، عادَت، وشادورها في يدها. "يجب أن أذهب لِرُؤية عمّتي". ووقفت تنتظر، الإذنَ، ربّما. شردَتْ نظرتُها. "أصبحتُ مجنونة!" أدارت ظهرَها بعصبيّة وخرجت من الغرفة. ومن وراء الباب، وفي الرِّواق، سُمِعَ صوتُها: "لا أُبالي..."، تذهب وتجيء، "بِمَ تُفَكِّرُ أنت بشأنها"، تذهب، "... أحبُّها، أنا"، تعود، "لم يَبْقَ لي سواها... أخواتي هَجَرْنَني، وإخوتُك أيضاً..."، تذهب، "... أن أراها"، تعود، "يجب..."، تذهب، "... إنها تُزعجكَ... وأنا أيضاً!". وسُمِعَتْ حركةُ ذهابِها مع ابنتَيها.

دام غيابُهُنَّ ثلاثةَ آلافٍ وتِسْعَ مئة وسِتِّينَ نَفَساً من أنفاس الرجُل. ثلاثة آلاف وتسع مئةٍ وستِّين نَفَساً لم يقع في غُضونها إلاّ الأحداث التي تَوَّعَتْها المرأة: قرعَ السقّاءُ بابَ الجار. فتحت له البابَ امرأةٌ

ذاتُ سُعالٍ أبَحّ... بعد بضعة أنفاس، عبرَ الشارعَ صبيٌّ على درّاجته الهوائية صافِراً لَحْنَ "لَيْلي، لَيْلي، لَيْلي جان، جان، جان، لقد حطّمتِ قلبي...".

ثمّ أنهنّ عُدْنَ، هي وابنتاها اللتان تركتهما في الرّواق. فتحت الباب بحركة خاطفة. ما زال رجُلُها هنا. في الوِضْعَة نَفْسِها، وإيقاع التنفُّس ذاته. أما هي فكانت شاحبةً، حتّى أنها أكثر شحوباً منه. استندتْ إلى الجدار. وبعد صمتٍ طويل قالت متحسِّرةً: "عمّتي... تركت المنزل... ذهبت!". وإذ كانتْ مُلْصِقَةً ظهرَها بالجدار تركت نَفْسَها تَنْزَلِقُ أرضاً. "ذهبت... إلى أين؟ لا أحدَ يعلم... لم يَعُدْ لي أحدٌ... لا أحدَ على الإطلاق!" ارتجف صوتها. وانعقدت حُنْجُرتُها. وسالت دموعُها. "إنّها تجهلُ ما حَلَّ بي... لم تَكُنْ على عِلْم... وإلاّ لكانت تركت لِي رسالةً، ولهرَعت لِنَجْدَتي... إنّها تحتقرُكَ، هذا شيء مؤكّد، لكنّها تُحبُّني... تحبّ الطفلتين. أمّا أنت..." يخنُق النشيجُ صَوْتَها، فتبتعد عن الجدار، وتُغمِضُ عينَيها. ثم تأخذُ نَفَساً عميقاً لتقولَ كلمةً. لا تستطيعُ أن تقولها. لا بُدَّ أن تكون الكلمة ثقيلة، مُثْقَلَة بالمعنى، ثقيلة لدرجة أنّها أَخْمَدتْ صوتَها. عندئذ أبقتْها في قرارة نَفْسها، وبحثت عن شيءٍ آخرَ أخفَّ، وألطفَ، وأسهلَ نُطقاً: "وأنتَ كنتَ تَعلمُ أن لدَيك امرأة وابنتَين!" ضربت بِيَدها على بطنها مرّةً، ومرّتَين، كما لو أنّها تُخرج هذه الكلمةَ الثقيلةَ المتوارِيةَ في أحشائها، ثم جلست القُرْفُصاءَ وصرخت: "هل فكّرت فينا للحظة عندما كنتَ تضع كلاشنكوفك اللعين على كتفِك؟ يا ابن الـ..." وحبَسَت الكلمةَ مرّة أخرى.

ولِبُرهة، ظلَّت ساكِنة. عيناها مغمضتان، ورأسُها منخفض.

وراحت تنشج نشيجاً مُؤلماً، وطويلاً. وكتفاها تتحركان دائماً على إيقاع التنفُّس. سبعة أنفاس.

بعد سبعة أنفاس، رفعت رأسَها، ومسحت عينَيها بِكُمِّها المزخرف بالسنابل وأزهار القمح. وبعد أن حَدجتِ الرجل بنظرَةٍ مديدة اقتربت منه، وانحنت على وجهه، وسألته "العفو"، وهي تُلامسُ ذراعَه. "أنا مُتعبة. خائرة القُوَى"، همست. "لا تَتْرُكْني وحيدةً، ليس لي أحدٌ سِواك". ورفعت صوتَها: "من دونك أنا لا شيء. فَكِّرْ في ابنتَيك! ماذا سأفعل معهما؟ إنهما صغيرتان جداً..." وكفَّت عن ملامسته.

في الخارج، في مكانٍ ما، لا يبعُد كثيراً، يطلِقُ أحدُهم رصاصةً، وآخرُ، أقربُ، يردّ برصاصة. يُطلق الأوّلُ رصاصةً ثانية. الآخرُ لا يردّ.

"لن يأتي المُلاّ هذا اليوم" قالت بشيء من الارتياح "يخاف من الرصاصات الطائشة. كما أنّه جَبان مثل إخوتك". تنهض وتمشي بِضعَ خُطوات "أنتم، الرجال، أنتم جُبناء كلُّكم!" تعود، مكفَهِرَّة، تُحَدِّق في الرجل "أينَ هم إخوتُك الذين كانوا فخورين جدّاً برؤيتِك وأنت تقاتل أعداءهم؟" انقضى نفَسانِ وامتلأ صمتُها غيظاً. "الجُبناء!" قالت زافِرَةً. "كان عليهم الاهتمام بابنتَيك، بي – بسعادتك، بسعادتهما – أليس كذلك؟ أين هي أُمُّك التي كانت تُردِّد بلا انقطاع أنّها تُضحّي بحياتها من أجل خُصْلَةٍ من شَعرك!؟ لم تشأ أبداً القبول بأنّ ابنها، هذا البطل الذي قاتل على كلّ الجبهات، ضدّ كُلّ الأعداء، أمكنه أن يتلقّى رصاصة في شجار بائس مع رجُلٍ – ينتمي إلى معسكره الخاص، مع ذلك – كان قد قال: "أبصُق على قِطّ أُمِّك!". من أجل شتيمة فقط! تتقدَّم خُطوة.

"هذا شيء سخيف ومثير للسُّخرية!". يشردُ بصرُها في الغرفة، لِيَسْتَقِرَّ بِبطء وثِقل عليه، هو الذي ربَّما كانَ يسمعُها وهي تضيف: "أتعلم... ماذا قالت لي عائلتك قبل أن تغادر المدينة؟ إنَّهم لا يستطيعون الاهتمام لا بامرأتكَ ولا بابنتَيك... ولتعلمْ: أنّهم تركوك. وهم لا يعبأون بحالتك، لا بشقائك، ولا بسعادتك!... لقد تخلّوا عنّا..."، تصرُخ: "نحن، أنا!" وترفع نحو السَّقْف يدها التي تحمِل المِسْبَحة، وتقول متضرِّعةً: "يا الله، ساعدني!... القهّار، القهّار..." وتبكي.

تُكمل دورةً من التسبيح.

تُتَمْتِمُ خائرةَ القُوى: "أنا... أصبحتُ، أنا... مجنونةً"، ثم تُلْقي برأسها إلى الوراء وتقول: "لماذا أقولُ له كلَّ ذلك؟ أصبحتُ مجنونة. اقْطعْ لساني يا الله! ولْيَملأ الترابُ فمي!"، تُغطّي وَجْهَها، "يا الله، احفظني، أنا في ضَلال، اهدني السِّراطَ المستقيم!"

ما مِن صَوت.

ما مِن صَوت.

تغوصُ يدُها في شعر رجُلها، وتنبعثُ مِن حُنجُرتها الجافّة كلماتُها المتوسِّلَة: "عُدْ، أتَوسَّل إليك، قبل أن أفقُد الرُّشد. عُدْ، لا لشيء إلاّ من أجل ابنتَيك..." ترفع رأسها. ومن خلال الدموع يتجمّد نظرُها في الاتّجاه غير المحقَّق لنظرة الرجل. "يا ربِّ، هيّئ له العودة إلى الحياة!" يغدو صوتُها خافتاً "مع ذلك، لطالما قاتلَ باسْمكَ. من أجل الجهاد!" تصمُتُ ثم تستأنف: "وأنتَ، أتتركُه هكذا؟! وابنتاه؟ وأنا؟ لا يُمكنك، لا، ليس لك أن تتركنا هكذا، بلا رجُل!" وتمتدُّ يدُها اليُسرى، تلك التي تمسك المِسبَحة، لِتَسحبَ القُرآنَ نحوها. يحثُّ غيظُها عن صوتها في

حُنجُرتها، وتقول: "بَرْهِنْ لنا أنّك موجود، هيِّئ له العودة إلى الحياة!" تفتح القُرآن، يُحاذي إصبعُها أسماءَ الله المدوَّنة على صفحة الغلاف "أُقْسِمُ لكَ أنّني لن أدَعه يذهب بعد الآن للقتال مثل مُغفَّلٍ مسكين. حتّى باسمك! سيكون لي، هنا، معي". يَعقدُ نحيبٌ حُنْجُرتَها ولا يترُك مخرجاً إلاّ لصرخة مخنوقة: "القهّار". واستأنفتِ التسبيحَ: "القهّار..." تِسْعاً وتِسعين مرّةً، "القهّار".

أظلمت الغُرفة.

"ماما، أنا خائفة. العتمة شديدة". ناحت إحدى الفتاتين في الرّواق، خلف الباب. نهضت المرأة لتغادر الغرفة.

"لا تخافي يا ابنتي. أنا هنا".

"لماذا تصرُخين؟ هذا يخيفني يا أُمّي"، تبكي الطفلة. "ما كنتُ أصرُخ. كنتُ أتكلّم مع والدك"، طمأنتها الأمّ. ابتعدتا عن الباب. "لماذا تُسمّين أبي القهّار؟ أهو غاضِب؟"

– لا، سوف يغضب إذا ما أُزعِج."

سكتت الصغيرةُ.

سَجا الليلُ.

وكما كانت المرأة قد توقّعتْ، لم يأتِ الملاّ.

عادت ومعها قِنديل محميّ من الريح. وضعته على الأرض قرب رأس الرجل. أخرجت من جيبها قارورة القطْر. وسكبت بلطف بضع قطرات في عينَيه. واحدة، اثنتَين. واحدة، اثنتَين. ثم غادرت الغرفة لتعود ومعها شَرْشَفٌ وحوضٌ بلاستيكي. رفعت القماش الأبيض الذي يُغطّي ساقَي الرجل. نظّفت بَطْنَه، ورِجْلَيه، وعُضوَه. ولمّا فَرغت

غطّتْ رَجُلَها بِشرشف نظيف، وفحصت وَتِيرَةَ تَقطُّرِ الماء المُحلّى - المُملَّح، وغادرت مع القنديل.

عاد كلُّ شيء مُظلماً. مُظلماً لوقت طويل.

فَجْراً، عندما ارتفع صوتُ المُلاَّ الأبَحُّ داعياً المؤمنين للصلاة، سُمِعَ وَقْعُ أقدام مُتَرنِّحة في رِواق المنزل، أخذت تقترب من الغرفة، ثمّ تبتعد وتعود. ثُمَّ فُتِح البابُ. ودخلت المرأة. نظرت إلى رجُلها. ما زالَ هنا في الوِضْعَة ذاتها. غير أنّ عينَيه تُحيِّرها، وتخطو خُطوةً إلى الأمام. كانت عَيناه مُغمضتَين. تقتربُ المرأةُ منه خُطوةً أخرى، من دون أن تُحدثَ صوتاً. تتقدّم خُطوتَين. تنظر إليه. لا تلاحظ شيئاً. يَنتابُها الشكُّ. تغادر الغرفة وهي تَسير القَهْقَرى. وفي أقلِّ من خمسة أنفاس عادَت ومعها القنديل. ما زال هو مُغمض العينَين. تَهاوتْ أرضاً "أتنام؟". حطّتْ يدها المُرتجفة على صدر الرجُل. إنَّه يتنفَّس "نَعم، أنت نائم". صاحتْ: وأجالت نظرَها في الغرفة بحثاً عن أحدٍ تقول له: "إنّه نائم!"

إنَّهُ الفراغ. وهي خائفة.

تناولت السجّادةَ الصغيرة. بسطتْها ومَدّتْها على الأرض. بعد أدائها صلاة الصباح، بقيت جالسة. ثم تناولت القُرآن، وفتحته على الصفحة المُعلَّمة بريشة طاووس رَفعتْها وأبقتْها في يدها. وبِيَدها اليسرى راحت تُساقطُ حبّات المِسْبحَة.

بعد تلاوَة بعض الآيات، دَسّت الرِّيشةَ بين الصفحات وأغلقت القُرآن. مكثت في حالة تأمُّلٍ للحظة مأخوذةً بتلك الرِّيشة البارزة من الكتاب المقدَّس. وراحت تُلامسها بِحُزن في البداية ثم بِتَوتُّر.

نهضتْ. رتَّبت السجّادَة وأعادتها إلى موضعها، واتجهت نحو

الباب. وقبل أن تجتازه، توقّفت. وعادَت أدراجَها. رجعت إلى مكانها جِوارَ الرجُل. وبيَدٍ متردّدةٍ فتحت إحدى عينَيه. ثم فتحت العينَ الأخرى. وانتظرت. بقيت العينان مفتوحتَين. لم تنطبقا من بعد. تناولت المرأةُ قارورةَ القَطْرِ وَسَكبتْ في عينَيه بعضَ القطرات. واحدة، اثنتَين. واحدة، اثنتَين. ثم فحصت كيسَ الحقْن. ما زال فيه ماء مُحلّى – مُملَّح.

قبل أن تقوم، تريّثت لِتُلقي نظرةً على الرجل وتسأله: "أما زال بإمكانك أن تُغمِضَ عينَيك؟". لم تلقَ جواباً من نظرة الرجُل الغائبة. ألَحّت: "بَلى، تستطيع! افعلْها مرّةً أخرى!". وانتظرت. بلا جدوى.

وإذ انتابَها القلقُ، أدخلت بخفّةٍ يدَها تحت عُنق الرجل. غير أنّ إحساساً ما، شعوراً بالضيق، جعل ذراعَها ترتجف. أغمضتْ عينَيها، وصَرفَتْ بأسنانها. أخذت نَفَساً عميقاً، مؤلماً. توجّعت. وفي أثناء زفيرها سحبت يدَها، وعايَنتْ في ضوء القنديل الخافت أطرافَ أصابعها المرتجفة. كانت جافّة. نهضت لتضع الرجُل على جَنْبه. أدْنَت القنديلَ من عُنُقه لكي تتأمّلَ جُرحاً صغيراً ما زال مفتوحاً، كامداً، مُفرغاً من دمه، غير أنّه لم يلتئم بعدُ.

حبَست المرأةُ أنفاسَها وضغطت على الجُرح. ما زال الرجل عديم الاستجابة. ضغطت بمزيد من القوّة. لا شكوى، لا في العينَين ولا في النَّفَس. "حتّى أنّك لا تتألم؟". وضعت الرجُلَ على ظهره مجدّداً، وانحنت عليه لكي تنظرَ في عينَيه "أنت لا تتألّمُ أبداً، أنت لم تتألّمْ أبداً، أبداً!" تنهّدت "لم أسمع قطُّ أنّ بإمكان رجُل أن يعيش مع رصاصة في عُنقه. أنت لا تَنزِف حتّى، ما مِن قَيْحٍ، ولا ألم، ولا عذاب! هذه

أُعجوبة! كانت تقول أُمُّك... بِئْسَ الأُعجوبة!" نهضت "حتَّى وأنت جريح، وُقِيتَ العذابَ." يَصِرُّ صوتُها في حَلْقها المُتشنِّج. "وعليَّ أنا أن أُعاني من جرّاء ذلك، عليَّ أنا أن أبكي!". ومضت نحو الباب. اغرَوْرقت عيناها بالدمع وبانَ فيهما الغضبُ، قبل أن تختفي في عتْمة الرِّواق، فيما كان القِنديلُ يُرْعِشُ ظِلَّ الرجُلِ على الجدار، إلى أن بزغَ النهارُ وأشرق، واخترقت أشعّةُ الشمس ثقوبَ السماء الصفراء والزرقاء التي على السِتارة لتطمسَ ضوءَ القنديل.

تَردَّد يدٌ في فتْح باب الغرفة. أو لا تتمكّن من فتحه. "بابا" يطغى صوتُ إحدى الطفلتَين على صرير الباب "إلى أين تذهبين؟" لدى سماع صرخة المرأة تَترك الطفلة الباب وتبتعد. "يا عزيزتي، لا تُزعجي والدَكِ. إنّه مريض. نائم. تعالَي معي". تركضُ الخُطى الصغيرةُ في الرِّواق: "وأنتِ، عندما تذهبين إليه، عندما تصرُخين، ألا تُزعجينه؟" تسألَ الطفلةَ. تجيبها الأُمُّ: "بَلى". ورانَ صمتٌ.

اقتحمت ذُبابةٌ جوَّ الغرفة الصامت. حطّتْ على جبهة الرجُل. متردِّدةً، غير واثقة. تسكّعت بين تجاعيده. ولحستْ جِلْدَه عديم الطعم. لا شكّ في أنّه عديم الطعم.

هبطت على زاوية عَينه. متردّدةً دائماً. غيرَ واثقة دائماً. تذوّقت بياضَ العَين، وانسحبتْ. لا شيء يطرُدها. أكملتْ طَرِيقَها، وغاصت في اللِّحية. ثم تسلَّقت الأنفَ. وطارت. استكشفت الجسَدَ. وعادت. حطَّت مجدّداً على الوجه. تشبَّثتْ بالأنبوبة الداخلة في الفم المُنفرج. وراحت تلعَقُها وتحاذيها حتى زاوية الشفتَين. لا لُعاب. لا طَعْم. تقدَّمت. دخلت في الفم. وتوغّلتْ فيه.

يلفظُ القنديل عبثاً آخرَ أنفاسه، وقد انطفأت شُعلته. تدخلُ المرأة وقد اعتراها تعبٌ شديد، أنهكَ كِيانَها، وجسَدَها. تخطو بِضعَ خُطواتٍ نحو رجُلها، ثم تتوقّف. بدتْ أكثرَ تردُّداً منها عَشيَّة. تتطلّع فاقدَةَ الأمل إلى الجسد الهامِد. تجلس بين الرجُل والقُرآن الذي تفتحه على صفحة الغِلاف. تُلامِسُ إصبعُها أسماءَ الله الحُسْنى واحداً واحداً. وهي تعُدّها. تتوقّف عند الاسم السابِعَ عَشرَ. "الوهّاب" تُتمتِم. تُغضِّن ابتسامةٌ مُرَّة زاوية شفتَيها "لا أحتاج إلى مَوهِبَة" ثم تمسك بطرف ريشة الطاووس البارزة من المُصحف. "ما عُدْتُ أجرؤ على تِلاوة أسماء الله". تداعب بالريشة شفتَيها "الحمدُ لله... سوف يُنقِذك. من دوني. من دون صلواتي... لا بدّ أن يفعل ذلك".

تُسمع ضرباتٌ على الباب تُسكتُ المرأة. "لا بدّ أن يكون هذا هو المُلاّ". لا تجد أدْنى رغبة في القيام لتفتح الباب. يُقرعُ البابُ ثانيةً. تتردّد. يتوالى القرعُ. تغادر الغرفة. يُسْمَعُ وَقْعُ خُطواتها حتى الشارع. تتكلّم مع أحدهم. تضيعُ كلماتها في الباحة، خلف زجاج النوافذ.

تدفع يدٌ وجِلَةٌ بابَ الغرفة. تدخل إحدى الابنتَين الصغيرتَين. وجهٌ وديع تحت شعر برّي. بُنَيَّة رقيقة. تحدِّق عيناها الصغيرتان في الرجل. "بابا" تصيح. تتقدّم على استحياء. "بابا، هل أنت نائم؟ ماذا لدَيك في فمك؟" تشير بإصبعها إلى أُنبوبة الحقْن. تتوقّف قُرب والدها، وتتردَّد في وضع يدها على خدّه "لكنّك لا تنام!" تصيح. "لماذا تُردِّد أُمّي دائماً أنك نائم؟ ماما تقول إنّك مريض. تمنعني من الدخول هنا ومكالمتك... لكنْ هي، هي تكلّمك كلَّ الوقت". تَهُمُّ بالجلوس قُربه، فتردعها صرخةُ أُختها، المحشورة في شقّ الباب "اسكتي" صاحت بها مُتّخذةً هيئة

أمّها، وركضت نحو الصغيرة. "تعالَي معي" قالت لها وهي تجرّها بيدها نحو أبيهما. بعد أن تلقي الصغيرةُ نظرةً سريعة متشكّكة، تتسلّق صَدْرَ والدها، وتأخُذُ بلحيته حاثّةً إياه ب"حا" و"دي" كما تُحثُّ الدّابّة على السير. بينما تهتِف الأخرى "هيا، بابا، تكلّمْ" وتميل نحو فمه وتلمس الأنبوبة "انزعْ هذا الشيء، وتكلَّم". تنزع هي الأنبوبة على أمل أن تسمع كلاماً. لا كلام. لا شيء سوى أنفاس، تتردَّد بطيئة وعميقة. تتأمّل فمَ الأبِ المُنفرجَ. وبدافع الفُضول تُدخِلُ يدَها فيه وتُخرِجُ منه الذُّبابة. "ذبابة" تصيح ثمّ تُلقي بها أرضاً متقزّزة. تضحك الصغيرة وتضع خدَّها المشقّق على صدر أبيها.

تدخلُ الأمّ مذعورةً، وتصيح: "ماذا تفعلان؟!". تهرع نحو البنتَين "اخرُجا! تعالَيا!" وتجرّهما بذراعيهما. "ذُبابة، بابا يأكل ذُبابة" صاحت البنتان في الوقت نفسه تقريباً. "اخرسا!" زجرتهما الأمّ.

وغادَرْنَ الغرفة.

الذُّبابةُ، الغارقةُ في اللُّعاب، تتخبَّط على البساط.

عادت المرأة إلى الغرفة. وقبل أن تُدخِلَ مجدَّداً الأُنبوبة في فم الرجُل، تُلقي نظرةً قلِقةً وفُضولية. "الذُّبابة!؟". وإذ لا تلاحِظ شيئاً، تُعيد الأنبوبة إلى مكانها وتذهب.

عادت في ما بعد، لكي تسكُب بعضَ الماء المُحلّى - المُملَّح في كيس الحقْن، وتقطُر نِقاطاً من القطّارَة في عينَي الرجُل.

ما إن أنهتْ المهمَّة حتّى غادرت من دون أن تَلبَث بقُرب رجُلها.

لم تُعاودَ وضْعَ يدها اليُمنى على صدر رجُلها.

لم تُسبّح بالمِسْبَحة السوداء على إيقاع تنفُّس رجُلها.

وذهبت.

لم تأتِ ثانيةً إلا مع أذان الظُّهر، لا لكي تتناولَ السجّادةَ الصغيرةَ، وتبسُطها، وتمُدُّها على الأرض لأداء الصلاة. لم تأتِ إلاّ لتَضع من جديد نِقاطَ القطّارة في عينَي الرجُل. واحدة، اثنتَين. واحدة، اثنتَين. وتذهب.

بعد أذان الصلاة، ارتفع صوتُ المُلاّ مُتضرِّعاً إلى الله أن يحفَظ مؤمني الحَيِّ في يوم الأربُعاء هذا... "لأنّه، كما يقول نبيُّنا: هذا يوم شُؤم أُغرِقَ فيه فِرعَون وقومُه، وأُبِيد قومُ النبي صالح، عاد وثمود..." توقّف للحظة وتابع على وجه السُّرعة قائلاً بصوتٍ مذعور: "أعزّائي المؤمنين، كما كنتُ أقول لكم دائماً، إنّ الأربُعاء يومٌ، كما جاء في الحديث الشريف، لا تصِحّ فيه الحِجامةُ، ولا العطاء، ولا الأخذ. غير أنّ حديثاً رواه ابنُ يونُس يقول بجواز الجهاد فيه. واليوم يمُدُّكم أخوكم، القائد المحترم، بالسلاح لكي تدافعوا عن شرفكم، وعن دمكم، وعن عشيرتكم".

في الشارع، يرتفع صُراخُ الرجال بمِلء الحناجر: "اللهُ أكبر!". ويركضون. "اللهُ أكبر!". تبتعد أصواتُهم، "اللهُ..."، وتقترب من المسجد.

تطوفُ جماعةٌ من النَّمْل حول جُثّة الذُّبابة المطروحة على البِساط. ثمّ تَنْقضُّ عليها لتحمِلها.

تأتي المرأة لِتُلقي نَظرةً قلِقة على الرجُل. لعلّها تخشى أن يكون النداء لحمل السلاح قد أقامه على قدمَيه.

تبقى على مَقرُبة من الباب. تلامِسُ أصابعُها شفتَيها، ثمّ تندفِع بين

الأسنان كما لاستخراج كلمات لا تجرؤ على الخروج. ثم تغادر الغرفة. تُسمَع وهي تُعِدُّ طعام الغداء. تتكلّم وتلهو مع الطفلتَين.

ثُمَّ كانت القيلولة.

والظلال.

والسكون.

عادت المرأة. أقلَّ توتُراً. وجلستْ قُرب رجُلها. "منذ قليل كان المُلاّ هنا. جاء من أجل اجتماعنا للصلاة. بُحتُ له بأنّني لم أعُد طاهرة منذ البارِحة، وقد جاءني الحَيْضُ، مثلَ حوّاء. لم يُعجبه ذلك. و لم أفهم لماذا. ألأنّني تجرّأتُ على التَشبُّه بحوّاء، أم لأنّني حدّثته عن حَيضي. وقد انصرف وهو يُدَمْدِمُ في لِحيَتِه. لم يكن كذلك من قبلُ. كان يمكن المُزاح معه. لكنْ منذ إعلانِكم القانون الجديد في البلاد، هو أيضاً قد تغيّر. إنّه يخاف، المِسكين."

وقَع نظَرُها على القُرآن. فاعترتها انتفاضة: "عجباً، الرِّيشة؟" بحثت عنها بين صفحات الكتاب. لم تَجِدْها. وتحت المِخدَّة. لم تجِدْها أيضاً. بحثت في جُيوبها، فوجدتها. أطلقت تنهيدة ارتياح "أوف"، وعادت إلى مكانها، "... هذا المُلاّ يُفقدُني الرُّشْدَ!" قالت وهي تُعيد الرِّيشة إلى داخل القُرآن. "عَمّ كنتُ أتكلَّم؟... نَعم، عن حَيضي... طبعاً، كذبتُ عليه". ألقتْ على الرجُل نظرةً مُتَّقدة، فيها من المَكْرِ أكثر ممّا فيها من المُجاملة. "كما كنتُ قد كذبتُ عليك، مِراراً". ضمَّت ساقَيها إلى صدْرها وحصرتْ ذَقْنَها بين رُكبَتَيها "لكن ينبغي، مع ذلك، أن أعترِف

لك بشيء...". أدامت النظرَ إليه طويلاً، ودائماً بذلك القلق الغريب في العين: "أنت تعلم..." وبُحَّ صَوتُها، فابتلعت ريقَها تُرطِّب به حُنْجُرتها، ورفعت رأسَها. "عندما وُجِدْنا معاً في السرير للمرّة الأولى... بعد ثلاث سنوات من الزواج، أُذكِّرك! تلك الليلة، كنتُ في الحَيض". ونأى نظرُها عن الرجل ليشرُدَ في طيّات الشرشف. وضعتْ خدَّها الأيْسَر على رُكبتَيها. وتراجع القلق في عَينها ذات النَّدَبة "لم أقُل لك شيئاً. وأنت ظنَنْتَ أنّ... الدَّمَ كان دليلاً على بَكارَتي!". وهزّتْ ضحكةٌ خرساء جسدَها المتجمِّع في جلوسها القُرْفُصاء. "لّما رأيتَ الدَّمَ، كنتَ مُبتَهِجاً، وفخوراً!" انقضت بُرهةٌ، فنظرةٌ، فخَشيةٌ من سماع صرخة غضب، أو شتيمة. لا شيء. عندئذ، تركت نَفْسَها تتوغّل، بعذوبة وصفاء، في زوايا ذكرياتها الحميمة "طبيعياً، ما كان ينبغي أن يأتينيَ الحيض. لم يكن في ميعاده. لكنْ حصل ذلك قبل أوانه بأسبوع، ومردُّه حُكماً إلى الشعور بالجزع والخوف من لقائك. في النهاية، تخيّل، أن أكون مخطوبة خلال سنة تقريباً، ومتزوِّجة منذ ثلاث سنوات من رجُل غائب، فليس هذا بالأمر البدَهِيّ. كنتُ أحيا مع اسمك. ولم أرَك من قبل، ولا سمعتُك، ولا لمستُك. كنتُ خائفة، من كل شيء، منك، من السرير، من الدَّم. لكنْ في الوقت نفسه أحببتُ هذا الخوف. أنت تعرِف هذا النوع من الخوف الذي لا يُبعِدك عن رغبتك، بالعكس، هذا خوف يُهيِّجكَ، يمنحك أجنِحةً، حتى وإن كان يحرُقك. كان لديّ هذا النوع من الخوف. ومن يوم إلى يوم كان يكبُر فيَّ. يجتاح بطني، أحشائي... عشيَّة قُدومك فرغ هذا الخوف. لم يكن خوفاً أزرقَ، ذُعْراً. لا، كان خوفاً أحمرَ، أحمرَ دامِياً. عندما حدَّثتُ عنه عمّتي نصحتني ألاّ أقول شيئاً... وعلى ذلك

سكتُّ. وقد لاءَمني ذلك. مثل عذراء، كنتُ خائفة حقّاً. ولقد تساءلتُ عمّا كان ليحدُث لو لم أنزِف دماً ذلك المساء...» تكنُس يدُها الهواء كما لو أنها تطرد ذُبابة... «لكان ذلك كارِثةً حقّاً. كنتُ قد سمعتُ رواياتٍ كثيرةً بهذا الشأن. وكان بوُسْعي أن أتخيَّل هذا». ومضت تقول بلهجة ساخِرة: «إن فكرة تمرير الدم النجس على أنّه دم بَكارة فكرةٌ مُبتكَرة، لا؟». تمدّدتْ والتفّت بجسدها على الرجُل «لم أفهم أبداً لماذا كان فخرُ الرجال وثيق الارتباط بالدَّم إلى هذا الحدّ». ارتفعت يدُها أيضاً في الفضاء، وتحرّكت أصابعها، كأنما تُشير إلى أحد ما غير مَرئيّ بالاقتراب. «لكنّك تتذكّر أنّك ذات مساء، وكان ذلك في بداية حياتنا المُشتركة، عُدت إلى البيت متأخّراً، فاقد الوعي من السُّكر، وقد دخّنْتَ. وكنتُ أنا نائمة. ومن دون أن تقول لي كلمة، أنزلتَ سرْوالي. فاستيقظتُ. لكنّني تظاهرت أنّني في سُباتٍ عميق. ولقد... وَلَجْتَني... وبلغتَ مُنتهى النَّشوة وذُرْوَةَ اللَّذة... ولكن عندما قُمتَ لتغتسل رأيتَ دماً على عُضوكَ! فعُدتَ مُغتاظاً لتنهال عليّ ضرباً في مُنتَصف الليل، وما ذلك إلا لأنّني لم أُخبركَ بأنَّني حائض. وأنّني وسّختك. تضحك هازئة «لقد جعلتُك نَجِساً!» تلتقط يدُها من الهواء ذكرياتها، وتنغلِق عليها، ثمّ تنزِل لتلامِس بطنَها الذي راح يعلو ويهبِط بوتيرة أسرع من إيقاع تنفُّس الرجُل.

وبحركة مُباغتة دسَّتْ يدَها في الأسفل، تحت ثوبها، بين فخذَيها، وأغمضت عينَيها، تنفّست بعُمق، وبألم. وأدخلت أصابعَها بين ساقَيها بحركة عنيفة، كما لو أنها ستغرِز فيها نَصْلاً. ثم حبَستْ أنفاسَها وهي تسحب يدَها مصحوبة بصرخة مخنوقة. فتحتْ عينَيها ونظرت إلى

أطراف أصابعها: كانت مُبلَّلة، مُبلَّلة بالدَّم. حمراء من الدَّم. وضعت يدَها أمام وجه الرجُل الغائب "انظر! هذا دمي دائماً، نظيف. بين دم حَيضي والدم النظيف، ما الفرق؟ ما هو الشيء المُقزِّز في هذا الدَّم؟". تنزل يدُها لتصبح على مَقرُبة من أنف الرجُل "لقد ولدتَ من هذا الدَّم! إنه أنظف من الدَّم الذي يسري في عُروقكَ!". تمَسُّ بأصابعها لحيته مسّاً عنيفاً. تُلامِسُ شفتيه، وتُحِسُّ بتنفُّسه. تَسْري في جلدها رَعْشة جذَع. وترتجف ذراعها. تسحب يدَها، وتضُمُّ أصابِعَها، وإذ تضع فمَها على المخدَّة تُطلق صرخةً أخرى. صرخة واحدة. طويلة. مُمزِّقة. وتَلبَثُ مُسَمَّرةً. لوقت طويل. طويل جدّاً. إلى أن قرعَ السقّاءُ بابَ الجيران، واخترق سُعالُ الجارة العجوز الأجشُّ الجُدرانَ، وأفرغ السقّاءُ قِرْبَتَه في خزّان الجار، وإلى أن بَكتْ إحدى البِنتَين في الرّواق. عندئذٍ قامت، وغادرت الغرفة من دون أن تجروءَ على النظر إلى الرجُل.

في ما بعد، في وقت مُتأخِّر جداً، عندما تمكّنتْ جماعةُ النَّمل من حمْل جُثّة الذُّبابة حتّى أسفل الجدار الفاصل بين النافذتين، عادت المرأة ومعها شرشفٌ نظيف والحوض البلاستيكي الصغير. رفعت القماشَ الأبيض الذي يغطّي ساقَي الرجُل، ونظّفت بطنَه، ورِجْلَيه، وعُضوَه... وغطّته. "أكثر إثارة للتقزُّز من جُثّة! لا يُصدِرُ أي رائحة". وعادت أدراجَها.

حَلَّ الليلُ ثانيةً.

غرقت الغرفة في سواد حالك.

فجاةً سطع وميضُ انفجارٍ يخطِف البَصرَ. تفجير هائل زلزلَ الأرضَ.

وحطَّم عَصْفُه زجاجَ النوافذ.

مزّق الصُّراخُ الحناجِرَ.

دوّى انفجارٌ ثانٍ. أقربَ هذه المرّة. وبالتالي أعنف.

تبكي الطفلتان.

تصرُخ المرأة.

يتردّد وقعُ خُطواتهنّ المذعورة في الرِّواق ويختفي في القَبو.

في الخارج، غير بعيد، تشتعل النار في شيء ما، لعلّه شجرة الجيران. ويُمزِّق ضوءُ اللَّهبِ عَبشَ الباحة والغرفة.

في الخارج، يصرُخ بعضهم، ويبكي آخرون، فيما يُطلق عدد قليل نيران كلاشينكوفاتهم، لا يُعلَم من أين ولا على مَن،... يُطلقون، يُطلقون...

أخيراً يتوقّف كلُّ شيء في الضوء الرَّماديّ لفجر مُلتَبِس.

عندئذٍ يُطبِق صمتٌ عميق على الشارع الذي يتصاعد منه الدُّخان، وعلى الباحة التي لم تعُد سوى حديقة مَيتة، وعلى الغرفة حيث يرقد الرجل، مُغطّى بالسُّخام، ومُمَدَّداً كالمُعتاد، جامداً، فاقِدَ الحِسّ، مع أنفاسه البطيئة.

الصرير المترنّح لبابٍ يُفتَح، ووَقْعُ الخُطى الحذِرَة المتقدّمة في الرِّواق، لا تكسِر صَمْتَ الأموات هذا؛ بل تُؤكّده.

تتوقف الخُطى خلف الباب. بعد استراحة طويلة – أربعة أنفاس من الرجُل –، يُفتَحُ البابُ. إنّها المرأة.

تدخُل. لا يحُطّ نظرُها عليه مباشرةً، بل يستطلِع حالة الغُرفة

أولاً: حُطام الزجاج، السُّخام المترسِّب على تصاوير الطيور المهاجرة في الستارتَين، وعلى أخاديد البساط الكامدَة، وعلى القُرآن الذي تُرك مفتوحاً، وعلى كيس الحقْن الذي يُفرِغ آخرَ قطراته المُحلاّة – المُملَّحة... ثُمّ يُطالِعُ الشرشفَ الذي يُغطّي ساقَي الرجل الأشبه بِساقَي جُثّة، ويُلامِس لِحيَته وينتهي بعينَيه.

تقترب من الرجُل بخُطى وَجِلَة. تتوقّف. تتأمّل حركة صدْره. إنّه يتنفّس. تمضي قُدماً، وتنحني لِتُحدِّق في عينَيه. إنّهما مفتوحتان، يغمُرهما غبار أسود. تشرَع في تنظيفهما بِطَرف كُمِّها، وتتناوَل القارورة، وتقطُر في كلِّ عَين. قطرةً، قطرتين. قطرةً، قطرتين.

تلامِسُ باحتراس وجهَ الرجل لتُزيل السُّخامَ، ثم تقف بلا حراك، هي أيضاً. تنُوء كتفاها بِثقل الجذع، وتتنفَّس، كالمعتاد، على إيقاع تنفُّس الرجُل.

اخترق سُعال الجارة الأجشُّ صمتَ الفجر الرماديّ، وأدار رأسَ المرأة نحو السماء الصفراء والزرقاء التي على الستارة. نهضت واتّجهت نحو النافذة، محطِّمةً شظايا الزجاج تحت قدمَيها. ومن خلال ثقوب الستارتين راحت تبحث عن جارتها. اخترقت صَدْرَها صرخةٌ حادّة. فهرعت نحو الباب، وخرجت إلى الرِّواق. غير أنّ الضجّة المُصمَّة التي أحدثتها دبّابةٌ كبحت اندفاعها. عادت مذهولة. "الباب... بابنا المُطِلّ على الشارع تحطّم! جدران الجارة..." واختنق صوتها المذعور وسط هدير الدبّابة. أجالت نظرها من جديد في الغرفة ليستقِرَّ فجأةً على النافذة. اقتربت منها، وشقّت الستارتَين، وتأوَّهت: "ليس هذا! لا، ليس هذا!".

تلاشى هديرُ الدبّابة، وعادت نَوبات سُعال الجارة. انحنت المرأة مع تناثُر زجاج النافذة. وبعينَين مُغمَضتين، وصوت مخنوق، بدأت تتضرّع: "إلهي... الرحيم، أنا أنتمي إلى..." ينطلق عِيار ناريّ. تصمُت. عيار ناري ثانٍ. ثم صراخ رجُل: "الله أكبر!". وقصفُ دبّابة. يَرُجّ الدويُّ المنزلَ، والمرأة. تنبطح أرضاً وتزحَف نحو الباب وصولاً إلى الرِّواق، وتنزِل بسرعة درجات القَبْوِ لتَنضمَّ إلى ابنتَيها المرعوبتَين.

ما زال الرجل راقداً بلا حراك. مُمتَنعاً على الألم.

عندما سكتَ إطلاقُ النار – لنفادِ الذخيرةِ رُبّما – غادرت الدبّابةُ المكان. وعاد الصمتُ العميق والمُلَوَّث بالدُّخانَ ليحلَّ طويلاً.

في هذا الخمول المُغبَرّ، أسفلَ الجدار الفاصل بين النافذتَين، جاءت عَنْكبوت لتتسكّع قُرب جُثّة الذُّبابة التي تركها النملُ. تفحّصتها، وتركتها هي أيضاً، وقامت بجولة في الغرفة، ثم عادت نحو النافذة وتعلّقت بالستارة، وتسلّقتها، وتلكّأت على الطيور المهاجرة المُسَمَّرة في السماء الصفراء والزرقاء. ثم غادرت السماء وصعدت إلى السقف لتتوارى بمُحاذاة العوارض المتعفِّنة لكي تنسُجَ فيها شبكتَها، بلا رَيب.

ظهرت المرأةُ مُجدّداً. ومرّةً أخرى كانت تحمِل الحوض البلاستيكيّ، ومِنشفةً، وشرشفاً. نظَّفت كُلَّ ما هنالك، شظايا الزجاج، السُّخامَ المُنتشِر في الغرفة. ثم غادرت. ورجعت. سكبت ماءً مُحلّى – مُملّحاً في كيس الحقْن. وعادت إلى مكانها قُرب الرجُل لكي تقطُر في عينَيه القطرات الأخيرة المتبقِّية في القارورة. واحدة. انتظرت. اثنتَين. توقَّفتْ. لقد فرغت القارورة. ذهبت.

في السَّقْف، ظهرت العنكبوت مُجدَّداً. تعلّقت بطرف خيطها

الحريري، ونزلت ببطء. حَطّت على صَدْرِ الرجُل. وبعد لحظات من التردُّد، تبِعتْ خُطوطَ الشرشف المتعرِّجة التي قادتها نحو لِحيته، غير أنّها ارتدّت عنها، متشكّكة، واندسَّت في طيّات القُماش.

عادت المرأة. "سوف تحصُل عمليات إنتقامية!" قالت، وتقدَّمت بحزم نحو الرجُل. "يجب أن أنقلك إلى القَبو." نزعت الأُنبوبة من فمه، ووضعت يديها تحت إبْطَيه. ورفعته. جذبت هذا الهيكل العظميّ. وجّرته على البِساط. توقّفت. "خارت قُواي..." قالت يائسة. "لا، لن أتمّكن أبداً من إنزالك على الأدراج".

أعادته إلى الفِراش. أدخلت الأنبوبة في فمه مُجدّداً. ولَبِثت بُرهة، بلا حراك. مكثَت لاهثةً، مُتَوتِّرةً، تَقيسُه بالنظر وخلصت إلى القول: "الأجدر أن تُصيبَك رصاصةٌ طائشة وتقضي عليك قضاءً مُبرَماً!"، وهبّت واقفة لِتُغلقَ الستارتين، وتغادر الغرفة بخُطىً ساخطة.

تُسمَع نوباتُ سُعال الجارة التي تخرُق صمتَ بعد ظُهر هذا اليوم، كما تمزّقُ صدرَها. لا بد من أنّها تمشي على رُكام الجدران. تجرجر خُطواتها البطيئة والواهنة في الحديقة مقتربةً من المنزل. هو ذا ظلُّها المنكسر يرتسم على الطيور المهاجرة في الستارة. تسعُل وتُتمتِم باسم غير مسموع. تسعُل. تنتظر. بلا جَدْوَى. تتحرَّك، وتبتعد، وهي تردِّد الاسمَ غير المسموع، وتسعُل. ما من جواب البتَّة. تكُفُّ عن التَّمْتَمة. تترنَّم بشيء ما. بأسماء رُبّما. وتذهب بعيداً. ثم تعود. لا يزال يُسمَع ترنُّمها على الرغم من ضجّة الشارع، وخَفْقِ الأحذية. أحذية أولئك المزوَّدين بأسلحة. تركض الأحذيةُ. تتوزَّع لتختبئ رُبّما في مكان ما، خلفَ الجدران، في الأنقاض... وتنتظر الليل.

اليومَ لن يأتي السقّاء. ولن يجتاز الصبيُّ الشارعَ على درّاجته الهوائية صافراً لحنَ "لَيْلي، لَيْلي، لَيْلي جان، جان، جان، لقد حطّمتِ قلبي..."

العالم كلُّه يختبئ. يصمُت. ينتظر.

هوذا الليلُ يهبُط على المدينة، وتهبُط المدينةُ في خَدرِ الخوف.

لكنْ لا أحد يُطلق النار.

تمرُّ المرأةُ بالغرفة مجدّداً لتتفقّد كيس الماء المُحلّى - المُملَّح، وتغادر. لا تَنْبِسَ بكلمة.

الجارةُ العجوز ما زالت تسعُل وتترنَّم. هي ليست بعيدة ولا قريبة. لا يمكن أن تكون إلا وسط أنقاض الجِدار، الذي كان يفصِلُ، منذ قليل، بين المنزلَين.

يجتاح المنزِلَ نُعاسٌ ثقيلٌ ومُهدِّد، يجتاح كُلَّ المنازِل، كلَّ الشارع، على خلفية شكاوى الجارة العجوز المُنغَّمة. وذلك إلى أن تَسمع من جديد جلبةَ الأصوات، وخَفْقَ الأحذية. عندئذ تكُفُّ عن الغناء، لكنّها تستمِرُّ في السُّعال. "إنّهم يعودونّ!" يرتجفُ صوتُها في كُتلة الليل السوداء.

وصلت الأحذية. اقتربتْ. طردت السيدة العجوز، ودخلت إلى باحة المنزل، وتقدَّمت. تقدَّمت حتى حافَّة النافذة. نفذت سَبطانةُ بندقيّة عبر ألواح الزجاج المهشَّمة ونحَّت الستارةَ المزيَّنة بالطيور المُهاجِرة. وبأخمص البندقيّة كسَر بعضُهم النافذة. واندفَع إلى داخل الغرفة ثلاثة رجال وهم يصيحون "لا يتحرّكنّ أحدا!" ولا شيء تحرّك. أشعل أحدُهم

مشعلاً وسلّطه على الرجل المشلول نابحاً: "ابقَ مكانَك، وإلاّ حطّمتُ مؤخّرتكَ!" ووضع حذاءه على صدره. كان الثلاثة يُخفون رؤوسَهم ووجُوهَهم بعمائم سود. أحاطوا بالرجل الذي كان لا يزال يتنفّس ببطءٍ وسكون. انحنى أحدُهم عليه "تفِه، في فمه أُنبوبة ١ "، سحبها، "أين سلاحُك؟" صاح به. كانت نظرة الرجُل لا تزال على حالها خاليةً من أيّ تعبير، تائهة في ظلٍّ السقف، هنالك حيث يمكن أن تكون العنكبوت قد نسجت شبكتَها. "نُكلِّمُك" صرخ الرجُل الذي يحمِل المِشعل. "إنّه هالك" حسَم الثاني الأمر وهو ينحني لينزع من يد الرجل ساعته ومِحْبَس زواجه الذهبي. بينما كان الثالث يبحث في كلّ أنحاء الغرفة: تحت الفِراش، تحت المِخدّات، خلف الستارة الخضراء الخالية من كل زينة، تحت البِساط... "لا يوجد شيء!" قال مغتاظاً. "اذهبا وانظرا في الغرف الأخرى!" أمرَ الآخرُ، وهو الأولُ، الذي يحمِل المِشعل في يده ويضع حذاءه على صدر الرجُل. أذعنَ الآخران. واختفيا في الرِّواق.

رفَع الذي بقي في الغرفة الشرشفَ بِسَبطانة بُندُقيّته ليكشفَ جسدَ الرجُل. اغتمَّ لِرُؤية هذا الانحطاط والصمت فغرز كعبَ حذائه في صدره "ما بِك لِتنظُرَ هكذا؟" وانتظر أنّةً. لم يأت شيء. لا شكوى. حاول ثانية وقد استولت عليه الحَيرة: "أتسمعني؟". تفحّص الوجهَ الغائب. ثم زمجر حانقاً "هل قطعوا لسانَك؟" ونخَر: "لقد نفَقت أم ماذا؟". أخيراً سكت.

بعد أن أخذ نَفساً عميقاً وهو يتميّز غيظاً، أمسَك برقبته ورفعه. أرعبه وجهُ الرجُلِ المصفرُّ والتائه، فتركه وتراجع القَهْقرى. توقّف عند عتبة الباب مرتبِكاً. "أين أنتم، يا شباب؟" دَمْدَم من وراء طرف

العمامة الذي يخنُق صوتَه. ألقى نظرةً على الرّواق الأسود في الليل الحالك: "أنتُم هنا؟" رنَّ صوتُه في الفراغ. غدا تنفُّسُه، هو أيضاً، طويلاً وعميقاً. عاد نحو الرجُل ليتفرَّس فيه مرّة أخرى. شيء ما يشغَل بالَه، يُقلقه. يُمرِّر ضوءَ مشعله على أنحاء هذا الجسد الهامد ويعود فيسلّطه على العينَين المفتوحتَين على اتساعهما. يضرِبه بمقدَّم حِذائه ضربةً خفيفة على الكتِف. فلا يلقى أيّ استجابة. يجعل سلاحَه في مجال رؤية الرجُل، ثم يضع السَّبطانةَ على جبهته، ويضغَط. لا شيء. دائماً لا شيء. يلتقِط أنفاسَه، ويرجِع إلى عتبة الغُرفة. في النهاية يسمع الاثنَين الآخرَين وهما يضحكان هازئَين في إحدى الغرف. "ماذا يفعلان؟" يتذمّر، مذعوراً، يعود الشريكان المتواطئان وهما يمزحان.

– ماذا وجدتُما؟

– انظر! قال أحدُهما وهو يُريه رافِعة نَهْدَين.

– لديه امرأة!

– نعم، أعرف.

– تعرف؟!

– أيها الغبيّ المسكين، لقد سرقت محْبَسَ زواجه، لا؟

ألقى الثاني رافعة النهدَين أرضاً "ينبغي أن يكون لديها ثديان صغيران" قال وهو يتلوّى من الضحك مع شريكه. لكنّ الرجل حامِل المشعل لا يضحك. بقِيَ مفكِّراً. "لدَيّ الانطِباع بأنّي أعرفه"، تمتم وهو يتقدَّم نحو الرجُل. يتبعُه الآخران.

– مَن هذا؟

– لا أعرف اسمَه.

- أهو من جماعتنا؟

- أعتقد.

مكثوا واقفين، وما زالت وجوهُهم مخفيّةً بأطراف عمائمهم السود.

- هل تكلّم؟

- لا، لم يقُل شيئاً.

ركله أحدهم.

- إيه، استَيقظ!

- كُفَّ، ألمَ ترَ أنّ عينَيه مفتوحتان!؟

- هل أجهزتَ عليه؟

أشار الرجل الذي يحمل المشعل برأسه علامةَ النفي، وسأل:

- أين امرأته؟

- لا أحد في البيت.

ران الصمت مُجدّداً. صمت طويل تناغم فيه الجميع مع إيقاع تنفُّس الرجل، البطيء والعميق. أخيراً لم يتمالك أحدهم أعصابَه: "ماذا نفعل إذاً؟ أَنَنْسَحِب؟" ما من جواب.

لم يأتوا بحركة.

يُسمع غناء الجارة العجوز من جديد، يقطعه سُعالُها الأجشّ. "المجنونة تعود"، يقول أحدُهم. "لعلَّها أُمُّه" يفترِض الآخرُ. يُغادر الثالثُ الغرفة عبر النافذة ويهرع نحو العجوز. "يا أمُّ، هل تسكنين هنا؟" تترنَّم: "أسكن هنا..."، تسعُل، "أسكن هناك..."، تسعُل، "أسكن حيثما أُريد، عند إبنتي، عند الملك، هناك حيث أريد... عند ابنتي، عند الملك..." وتسعُل. يطردها الرجُل مرّةً أخرى من أنقاض

منزلها، ويعود. "أصبحتْ مجنونة تماماً!".

تبتعد نَوباتُ السُّعال وتضيع في المدى البعيد.

يلمح رجلُ المِشعلِ القرآنَ على الأرض، ويُسرع نحوه، فيرفعه، ويسجُد، مقبّلاً الكتابَ فيما يردِّد صلاةً من خلف طرف عمامته. "هذا مُسلم صالح!" هتف.

غرقوا مجدّداً في أفكارهم من دون صوت. لَبِثوا صامتين إلى أن نفدَ صبرُ أحدهم، وهو الرجل نفسُه الذي لم يتمالك أعصابَه قبل قليل: "طيِّب، ماذا نفعل الآن؟ الدورية، عجباً! لم نقصِف الحيَّ من أجل لا شيء، لا؟!" ونهض.

تناول الذي يحمِل المِشعل الشرشفَ وغطّى به الرجُلَ المُمدَّد، وأعاد الأُنبوبة إلى فمه، وأشار إلى الاثنين الآخرَين بالانصراف.

غادروا المكان، ومعهم القُرآن.

بزغ الفجرُ من جديد.

ومن جديد سُمِعَ وَقْعُ أقدام المرأة.

صعدت أدراج القَبو، واجتازت الرِّواق، ودخلت الغرفة من دون أن تأخذها الدهشةُ لرُؤية الباب مفتوحاً، والستارة مُبعَدة؛ ومن غير أن ترتاب للحظة في اقتحام الغرفة من قِبل الزوّار. تنفّستْ. وغادرت مجدّداً لتعود ومعها كوبا ماء. أحدهما لكيس الحقْن، والآخر لترطيب عينَي الرجُل. حتَّى هنا لم تُلاحظ شيئاً. لا شك في أنّ ذلك عائد إلى الغبش الذي يكتنف المكان، لأنّ النهار لم يطلع بعد، و لم تنفُذ أشِعَّةُ الشمس إلى

السماء ذات الثقوب في السِتارتَين المزخرفتَين بتصاوير الطيور المهاجِرة. و لم يحدُث إلاّ في ما بعد، عندما عادت لتُبدِّل الشرشفَ وقميصَ الرجل، أن عايَنتْ أخيراً معصمَه ويدَه المجرَّدَين. "ساعتك؟ محبسك؟" فحصت يديه، وفتّشت في جُيوبه، وبحثت تحت الشرشف. سارت بضعَ خطوات في الغرفة مضطربة. وعادت. "ما الذي حدث؟" تحوَّل قَلقُها إلى ذُعرٍ، وتساءلت "هل أتى أحد؟" ومضت نحو النافذة "نعم، جاء أحدٌ ما!" هتفت، مرعوبة، حالما اكتشفت النافذة المحطّمة. "مع ذلك... لم أسمع شيئاً!" تراجعت. "كنتُ نائمة! يا إلهي، إلى هذا الحدّ؟!". هرعت، مذعورةً، نحو الرِّواق، تاركةً الرجل مكشوفاً. عادت. عند عتبة الباب التقطت رافعة النهدَين. "فتّشوا المنزل؟! لم يهبِطوا إلى القَبو؟!"، تهاوت قُرب الرجُل. أمسكت بذراعه وصاحت: "هذا أنت... لقد تحرّكتَ! فعلتَ كُلَّ ذلك لتُخيفني! لتجعلني مجنونةً! هذا أنت!". هزّته هزّاً عنيفاً. سحبت الأُنبوبةَ. وانتظرت. لا إشارة أبداً، لا صوت. غاص رأسُها بين كتفَيها. مزَّق نحيبٌ حُنْجُرَتها، وهزَّ جسدَها. وبعد تنهيدة طويلة مبهورة، نهضت، وجفّفت عينَيها بِطَرف كُمّها، وقبل أن تغادر، أدخلت الأُنبوبة في فم الرجُل.

سُمِعت حركتُها وهي تتفقّد الغرف الأخرى. توقفت عندما اقترب سُعال الجارة الأجشّ من المنزل. هرعت نحو الباحة ونادت العجوزَ: "بِيبي... هل حصلت زيارة هذه الليلة؟" – "نعم يا ابنتي، زارنا المَلِك..."، سعلت، "جاء لِرُؤيتي... داعبني..."، ضحكت، وسعلت. "هل عندك خُبز، يا ابنتي؟ أعطيتُ الملكَ كلَّ خُبزي... كان جائعاً. كان جميلاً، هذا الملك! جميلاً جمالاً يكاد يُميت! طلب منّي

أن أُغنّي." وشرعت في الغِناء: "آه، يا مَلِكَ الطِّيبة/ أنا أبكي وأنُوح لِوَحدتي/ آه يا ملك..."

– "أين الآخران؟ زوجُكِ، ابنُكِ" استعلمت المرأةُ. كفّت العجوزُ عن الغناء، وتابعت حكايتها بصوت حزين: "بكى، الملكُ، عندما سمِعني! حتّى أنّه طلب من زوجي ومن ابني أن يرقُصا على أُغنِيَتي. رقصا. طلب منهما الملك أن يرقُصا رقصة الموتى... كانا لا يعرِفانها حتّى..." تبسَّمتْ، وتباعتْ "عندئذٍ، علَّمهما إيّاها بقطْع رأسَيهما وسكْب الزيت الحارق على جسدَيهما... وعندها بدءا الرقص!"

واستأنفت أُغنيَتَها المأسَوِيّة: "آه، يا مَلِك، اعلمْ أنَّ قلبي ما عاد يحتمِل غيابَك/ آنَ لك أنْ تعود..." قاطعتْها المرأةُ ثانيةً: "لكن ماذا... يا إلهي... بيتكِ! زوجكِ، ابنكِ... هم أحياء؟" اتخذت العجوزُ صوتاً ضعيفاً، مثل طفل: "نَعم، إنّهما هنا، زوجي، وابني... في البيت..."، سعلت، "يتأبَّطان رأسَيهما"... سعلت، "لأنّهما غاضبان علَيّ!" سعلت، العجوز، وبكت. "ما عادا يكلِّمانني! لأنّني أعطَيتُ الملكَ كلَّ الخُبز. تُريدين أن ترَيْهما؟

– لكن...

– تعالَي! تكلّمي معهما!"

ابتعدتْ، اجتازت الأنقاضَ. و لم تعُد تُسمَع.

فجأةً، يرتفع عويلٌ، عويلُ المرأة. مُرْتاعةً. مُروَّعَة. تتلاحق خُطواتُها على البلاط مسرعة، وتتعثّر بالحُطام، ثمّ تجتاز الحديقة، وتدخُل إلى المنزل. ما زالت تصرُخ. تتقيّأ. تبكي. تركض في المنزل، مثل مجنونة. "أريد أن أذهب من هنا. أريد أن أجِد عمّتي. مهما يكن الثمن!"

يتردّد صوتُها المذعور في الرِّواق، وفي الغُرف، وفي القَبو. ثم تصعد مع ابنتَيها. ويغادِرْنَ المنزل من دون المرور لرُؤية الرجُل. تُسمَع حركةَ مغادرتهنّ، متبوعة بِنَوبات سُعال السيّدة العجوز وغنائها الرتيب الذي أضحك الطفلتَين.

ثم غرق كلُّ شيء في صمت الرجل وجُموده.
ودامَ ذلك.
طويلاً.

وبين الفَينة والأخرى، تكنُس أجنحةُ الذُّباب السكونَ. في البداية ترتدُّ بِعَزم، لكنْ بعد أن تقوم بدورة كاملة في الغرفة، تحُطّ على جسد الرجل. ثم ترحل.

أحياناً، تَهُبُّ نَسمةٌ وترفع الستائر. وتلهو مع الطيور المهاجرة المسمّرة في السماء الصفراء والزرقاء، المثقوبة هنا وهناك.

حتّى ليعجَز دبّور، مع كلّ ما يُحدِثه من طنين مهدِّد، عن الإخلال بحالة الخَدر التي تَعُمُّ الغرفة. فهو يحوم ويحوم حول الرجُل، ويحُطّ على جبهته - يلسعُه أم لا، لن يُعرَف ذلك أبداً -، ثم يطير نحو السَّقف، ويدخل في العوارض المتعفِّنة، لكي يَبني عُشَّه بالتأكيد. غير أن حُلمَه بالعشّ ينتهي في فخّ شبكة العنكبوت.

يرتعش. ثمّ لا شيء بعدُ.
لا شيء أكثر.

ثم يهبِط الليل.

يُلعلِع الرصاص.

تعود الجارة مع أغانيها وسُعالها الآتي من وراء القبر. وتختفي في الحال.

أمّا المرأة فلا ترجِع.

يطلع الفجرُ.

يرفع المُلاّ أذانَ الصلاة.

تنام الأسلحةُ. غير أنّ الدُّخان ورائحة البارود يُطيلان أنفاسها.

لم ترجع المرأة إلا مع أشِعّة الشمس الأولى، التي نفذت من ثقوب السماء الصفراء والزرقاء التي على السِتارتَين. رجعت وحدها. عادت مباشرةً إلى الغرفة، قُرب رجُلها. خلعت حجابها أولاً. ومكثت واقفة للحظة. تفحّصت بالنظر كل ما هنالك. لم يُنقَل شيء من مكانه. لم يُسرَق شيء. وحدَه كيس الحقْن كان فارغاً.

نشطت المرأة بعد أن اطمأنّت، قاربت خُطواتها المترنّحة الفراش الذي يرقُد عليه الرجُل، نصف عارٍ، كما كانت قد تركته البارِحة. نظرت إليه مُطوَّلاً، كما لو أنّها شرعت مُجدّداً في عدّ أنفاسه. وبينما كانت تهِمُّ بالجلوس ارتدّت فجأة وهي تصيح: "القُرآن؟!". بان الجزعُ في عينَيها. وراحت تتفحّص أركان الغرفة. لا أثر البتّة لكلام الله. "المسبحَة؟" وجدتها تحت المخدَّة. "هل مَرَّ أحدٌ ما أيضاً؟" اعتراها الشَكُّ مجدّداً. وعاودها القلق. "البارِحة كان القُرآن هنا، لا؟" تهاوت

أرضاً غير واثقة. وفجأةً صرخت: "الرّيشة!" وراحت تبحث في كل مكان. "يا إلهي! الريشة!"

ارتفعت أصوات أطفال الحيّ وهم يلهون بين الأنقاض:

"حجّي مورالى؟

– بلى؟

– من يختار الماء؟ من يختار النار؟"

تقدّمت المرأة من النافذة، وأزاحت الستارتين، وسألت الأطفال: "هل رأيتم أحداً يدخُل المنزل؟" صاح الجميع بصوت واحد: "لا!"، واستأنفوا لعِبَهم: "اخترتُ النار!"

غادرت الغرفة، وفتّشت البيتَ كلَّه.

عادت مُتعَبةً، واتخذت مكاناً قرب الجدار الفاصِل بين النافذتَين. "لكنْ مَن جاء؟ ماذا فعلوا معك؟" لاح في نظرتها قلق تخالطه بَلْبَلة "ما عاد يمكننا البقاء هنا!". وسكتت بَغْتَةً كما لو أنّ أحداً قاطعها. بعد شيء من التردُّد، تابعت: "لكن ما العمل معك؟ أين يمكنني أن آخذك في مثل هذه الحالة؟ أعتقد أن..." تعلَّق نظرُها بكيس الحقْن الفارغ. "يجب أن أُحضِر ماءً"، قالت لِكَسْب الوقت. قامت، وذهبت لتجلِبَ كوبَي الماء. أكملت مهمّاتها اليومية. ثم جلست. يقظة. متأمِّلة. ما أتاح لها، بعد بضعة أنفاس، أن تُعلِن بصوت ظافر "تمكّنت من العثور على عمّتي. انتقلتْ إلى شمال المدينة، في مكان آمن، عند ابن عمّها". توقّفت. الوقفة المعتادة حيث تنتظر ردَّ فعلٍ لا يأتي. عندئذٍ تابعت: "تركتُ الطفلتَين

عندها". وقفة ثانية. ثم تمتمت مرهقةً: "أنا خائفة هنا"، كما لو أنّها تُبرِّر قرارَها. ولمّا لم تتلقَّ أيّة إشارة، أو أيّ كلام يُصوِّب رأيَها، خفضت رأسَها وصوتَها معاً: "أنا خائفة منك!" راحت عيناها تبحثان عن شيء ما على الأرض. الكلمات. بل أكثر من ذلك، الشجاعة. وجدتها. التقطتْها. قذفتْها: "لا يُمكنني أن أفعل شيئاً من أجلك. أظُنُّ أنّ كلّ شيء انتهى!" سكتت مرّةً أُخرى، ثم واصلت على وجهِ السُّرعة وبِحَزم: "يبدو أنّ هذا الحيَّ سيُصبِح قريباً خطّ تماسّ بين الفصائل". أضافت وقد استشاطت غيظاً: "كنتَ تعلم ذلك، هيه؟". ثم وقفة أخرى من جديد، مقدار نفس واحد لاستجماع القوّة من أجل التأكيد: "إخوتك أيضاً كانوا يعلمون! ولهذا هبّوا جميعاً. تخلّوا عنّا! الجُبناء! لم يأخذوني معهم لأنّك كنتَ حيّاً!..." ابتلعتْ ريقَها، وغَيظَها أيضاً. واستأنفت كلامَها بِحِدَّة أقلّ: "لو... كنتَ مَيتاً لاختلفت الأمور..." علَّقت تفكيرها. تردّدت. وبعد نَفَسٍ طويل، حزمت أمرَها: "ولكان على أحدهم أن يتزوَّجني!". حَرف صوتَها ضحكٌ داخليّ هازئ: "رُبّما كانوا يُفضِّلون أن تكون ميتاً". ارتجفتْ. "بذلك كان يمكنهم أن... يُضاجعوني! وضمائرهم مرتاحة". وإذ قالت ذلك نهضت بغتة، وغادرت الغُرفة. راحت تذرَع الرِّواقَ بخُطى مُتوتِّرة في كل اتجاه. كانت تبحث عن شيء ما. ثمّ عاد الهدوء والصفاء. لكنها رجعت أشدَّ اهتياجاً. "إخوتُك لطالما رغبوا في مُضاجعتي! كانوا..." تبتعد، وتقترب: "كانوا يُذلّونَني في جسدي، على الدوام، طوال سنوات غيابك الثلاث... كانوا يُذلّونَني من خلال نافذة الحمّام الصغيرة وأنا أغتسل، وكانوا... يُستَمنون. كانوا يُذلّوننا أيضاً، في الليل..." ترتعِش شفتاها. تعبث يداها في الهواء، في شعرها،

في طيّات ثوبها. ويتلاشى وقعُ قدميها على خطوط البِساط العتيق. "كانوا يستـ..." عند هذه الكلمات المعلّقة غادرت الغرفة مجدّداً وقد امتلأت غيظاً لكي تتنزّه في الهواء الطلق وتُفرغ غضبَها. "الأنذال! الأوغاد!..." تصرُخ ساخطةً. ثم سُرعان ما يُسمَع بكاؤها وتضرُّعُها: "ما الذي قُلتُه؟ لماذا قُلتُ كلَّ هذا؟! يا إلهي، ساعدني! فقدتُ السيطرة على نفسي. أقول أيَّ كلام..."

ولاذت بالصمت.

ما عادت تُسمع كذلك جَلبَةُ الأولاد الذين كانوا يلعبون على الأنقاض. لقد فرّوا إلى مكان آخر، في النهاية.

تظهر المرأة ثانية. شعرها منفوش. ونظرها شارد. بعد جولة في المنزل عادت لتجلس منهكةً جِوار رأس الرجل. "لا أدري ما الذي يحدث لي. قواي تنهار يوماً بعد يوم. مثل إيماني. يجب أن تفهمني." تُلامِسُه. "آمَل أن تتمكّن من التفكير، والسماع، والرؤية، رؤيتي، سماعي..." تُسنِدُ ظهرَها إلى الجدار، وتُمرِّر فترة طويلة من الصمت - بطول حوالي عشر دورات من التسبيح، كما لو أنّها لا تزال تُساقط حبّات المِسبحة على إيقاع أنفاس الرجل - فترة للتفكير، وللتوغُّل في خبايا حياتها، ثمَّ العودة بحصيلة من الذكريات: "لم يسبِق لك أن أصغَيت إليّ، و لم تسمعني قطّ. لم نتكلّم أبداً عن كلّ هذا! لقد مضى على زواجنا عشر سنوات، لكنّنا لم نُقِم معاً إلا سنتَين أو ثلاث سنوات. لا؟" تَعُدُّ "نَعم، عشر سنوات ونصف السنة من الزواج، ثلاث سنوات من الحياة المشتركة! الآنَ بدأتُ العدَّ. اليومَ أدركتُ كلَّ شيء!" تبتسِم. ابتسامة صفراء قصيرة تَحُلُّ محلَّ ألفِ كلمة وكلمة للتعبير عن مشاعر الحسرة والنَّدم... لكنْ سرعان ما

طغت الذكريات: "آنذاك، ما كنتُ لأتساءل حتّى عن أسباب غيابك. كان الأمر في نظري عاديّاً جداً. فقد كنتَ في الجبهة. كنتَ تُقاتِل باسْم الحُريَّة، باسْم الله! وهذا يُبرِّر كلَّ شيء. كان هذا يمنحُني الأملَ والفخرَ. كنتَ حاضِراً، بطريقة ما. في كلِّ واحدٍ منّا." عَيناها تخترقان الزمنَ الغابِرَ وتستعيدان الرؤية: "أمُّك، بصدرها الضخم، جاءت إلى بيتنا لتطلُبَ يدَ أُختي الأصغرِ منّي سِنّاً. و لم يكن هذا دَورها للزواج. كان دَوري أنا. وقد أجابت أمُّكَ ببساطة: "طيّب، هذا ليس مهماً، لتكن هذه إذاً!" وصوَّبتْ سبّابتَها نحوي بينما كنتُ أَصُبُّ الشايَ، ولِشدَّة اضطرابي سقط من يدي إبريقُ الشاي." تُغطّي وجهَها براحتَيها، خجلاً، أو طرداً لصورة حماتها التي كانت لِتَسْخرَ منها في هذه اللحظة. "أنت لم تكن على عِلم بذلك حتّى. أبي، الذي ما كان ينتظر إلاّ هذا، وافق على الفور من دونً أن يتردّد للحظة واحدة. و لم يعبأ البتَّة بغِيابك! مَن كنتَ على وجه الدِّقَّة؟ لا أحدَ كان يعلم. في نظرنا جميعاً، لم تكن سوى اسم: البطل! و، مثل كلِّ الأبطال، كنتَ غائباً. ولفتاة في السابعةَ عشرةَ مِن عمرها، كان من المُستحسَن أن تُعقَد خُطبتُها على بطل. قلتُ لِنفسي: الله غائبٌ أيضاً، ومع ذلك أُحبُّه، وأؤمن به... باختصار، احتفلوا بخطوبتنا من دون الخاطب! كانت أمُّك تزعُم: "هذا جيّد، النصرُ قريب! نهاية الحرب باتت وشيكة، وكذلك التحرير، وعودة ابني!" بعد حوالي سنة، عادت أمُّك، وكان النصر لا يزال بعيداً. عندئذ قالت: "من الخطورة بمكان بقاء المخطوبة مُدّة طويلة عند أهلها!" أثناء الاحتفال، كنت حاضراً بصورتك وبهذا الخِنجَر الكريه الذي وضعوه إلى جانبي، مكانك. وكان عليَّ أن أنتظر ثلاث سنوات أيضاً. ثلاث سنوات! وخلال ثلاث سنوات

ما كان يحِقُّ لي أن أرى رفيقاتي، ولا عائلتي... تُنصَح الزوجةُ الشابّة العذراء بعدم معاشرة الفتيات الأخريات المتزوّجات. تفاهة. وكان عليَّ أن أنام مع والدتك التي كانت تسهرُ عَليّ، أو بالأحرى، تسهرُ على عِفّتي. وكان كلُّ ذلك يبدو عادِيّاً جدّاً، طبيعياً جدّاً، لكلِّ العالم. حتى لِي. في الليل، كنتُ أنام مع والدتك، وفي النهار كنتُ أتناقش مع والدك. لِحُسْن الحظّ أنّه كان هناك. يا له من رجُل. لم يكن لي غيرُه. وكانت أمُّك لا تُطيق هذه العلاقة بيننا. كانت تَنقبِض عندما تراني معه. وسرعان ما تطردني إلى المطبخ. كان والدك يقرأ لي أشعاراً، ويحكي لي حِكايات. جعلني أقرأ، وأكتب، وأُفكِّر. كان يُحِبُّني. لأنّه كان يُحِبُّك، أنت. كان فخوراً بك عندما كنتَ تقاتل من أجلِ الحرّيّة. وكان يحدِّثني بذلك. بعد التحرير فقط بدأ يكرهك، أنت، ويكره أُخوتَك أيضاً، عندما أصبحتُم لا تقاتلون إلاّ من أجل السُّلطة.

دوّت صيحات الأولاد من جديد فوق الأنقاض، واجتاحت الرّواق والمنزل.

سكتت المرأة. أصغت إلى الأولاد الذين استأنفوا لَعِبَهم:

"حجي مورالى؟

- بلى؟

- من يختار القدم؟ مَن يختار الرأس؟

- اخترتُ القدم."

وتفرّقوا مرّة أخرى في الشارع.

استأنفت المرأة كلامها: "لماذا تحدّثتُ عن والدك؟" حكّت رأسها بالجدار، وبدا أنّها تفكّر، وتبحثُ في ذاكرتها... "نعم، لأنّي كنتُ أتحدّث عنّا، نحن الاثنَين، عن زواجنا، عن وحدتي... نعم عن هذا. ثلاث سنوات من الانتظار، ثم رجعتَ. أتذكّر ذلك كما لو أنّه حدث أمس. اليوم الذي عدتَ فيه، اليوم الذي رأيتك فيه للمرّة الأولى..." تفلتُ من صدرها ضحكةٌ ساخرة. "كنتَ مثلما أنتَ اليوم، لا كلمة، ولا نظرة..." تتطلّع إلى صورة الرجل على الحائط. "جلستَ بجانبي. كما لو كنّا قد تعارفنا... كما لو أنّك تراني ثانيةً بعد غياب قصير، أو كما لو كنتُ أنا مكافأة تافهة نلتَها على انتصارك. كنتُ أنظر إليك، أمّا أنت، فكانت عيناك سارحتين لا أدري أين. لا أعرفُ حتّى الآن إذا ما كان ذلك بداعي الحياء أو الإباء. لا يهمّ. وأمّا أنا فكنتُ أنظر إليك خُلسةً، كنتُ أتأمّل فيكَ. في أقلّ حركة من جسدك، في أقلّ تعبير من وجهك..." تعبث يدُها اليُمنى في شعر الرجُل المُتّسخ. "أمّا أنت، بهيئتكَ الساهيَة، المتغطرسة، فكنتَ في مكان آخر. ما أصدقَ قولَ الحُكماء: لا ينبغي أبداً الاعتماد على مَن عَرف لذّةَ السلاح!" ضحكة أخرى، لكنّها عذبة هذه المرّة "أصبح السلاح هو كلّ شيء عندك... لا بُدَّ لك من أن تعرف تلك الحكاية التي جرت أحداثها في أحد المعسكرات، حيث حاول ضابط أن يُبيِّنَ لمجنّدين جُدُد قيمةَ السلاح. عندئذ، سأل جندياً شابّاً، يُدعى بَنام: "هل تعرِف ماذا تحمِل على كتفكَ؟" قال بنام: "نعم، سيّدي، هذه بُندقيّتي!" فصرخ في وجهه الضابطُ: "لا، أيّها الغبيّ! هذه أُمُّكَ، وأُختُكَ، وشرفُكَ!" ثمّ توجّه نحو جُنديّ آخرَ وطرح عليه السؤال نفسَه، فأجاب الجنديّ: "نعم، سيّدي، هذه أُمٌّ، وأُختٌ، وشرفٌ، بَنام!"

تُغرِبُ المرأةُ في الضحك. "هذه الحكاية في مُنتهَى الصّحة. أنتُم الرجال! عندما تملكون السلاح تنسَون نِساءَكم." وتغرق مجدّداً في الصمت، من دون أن تَكُفَّ عن مُلامسة شعر الرجل. بحنان. ولمدّة طويلة.

ثمّ تُكمِل بنَبْرةٍ أسْيانَة: "في مرحلة خطوبتي ما كنت أعرف شيئاً عن الرجال. لا أعرف شيئاً عن حياة الزوجَين. لم أعرف سوى أهلي. ويا لهم من قُدْوَة حسنة؟! أبي، كان كلُّ همّه منصبّاً على طيور السُّمانَى، تلك السُّمانى المعدَّة للقتال. في كثير من الأحيان كنت أراه يقبّل تلك السُّماناة، لكنْ لم أرَه مرّة وهو يقبّل أمي، أو يقبّلنا نحن، أولاده. كنّا سبعاً. سبع بنات محرومات من الحنان". تشرُد عيناها في التحليق الجامد للطيور المهاجرة على الستارة. ترى فيها والدها: "كان يتربَّع دائماً. يُمسك بيده اليمنى سُماناةً ويأخذ في مُلامَستها على ثوبه، على مُستوى عُضوه تماماً، تاركاً قائمتيها تخرُجان من بين أصابعه؛ وباليد الأخرى يداعب عُنُقها بطريقة فاحشة. ويبقى على هذه الحال لساعات وساعات. حتى عندما يستقبل أحداً من الناس، لا يتوقّف عن القيام بهذا العمل الذي يُسمّيه "غسّاو". كان ذلك نوعاً من الصلاة عنده. كان فخوراً جداً بها، سُماناة تلك. حتى أنّني رأيته مرّةً، وكان البرد قاسياً وقارِساً، يُدخِل واحدة من تلك السُّمانَاة تحت بنطاله، في "قشطاكه". كنتُ صغيرة. ومنذ ذلك الحين، بقيت لمدّة طويلة أتخيّل أنّ الرجال ليس لديهم إلاّ سُماناة بين سيقانهم. كان هذا يُسلّيني وأنا أفكّر فيه. واحزَرْ كم كانت خَيبة أملي عندما رأيت خُصْيتَيك للمرّة الأولى!" توقفها ابتسامة وتُغمِض عينَيها. تغوص يدُها اليُسرى في شعر رأسها المنفوش وتداعب جذورَه. "كرهتُ تلك السُّمانَاة." تفتح عينَيها.

ومُجدَّداً تعلق نظرتها المحزونة بالسماء المثقوبة على الستارة: "في كلِّ يوم جُمعة، كان يأخذ سُماناه للعِراك في حديقة قاف. وكان يراهن. ومن وقت إلى آخر كان يربح، ومن وقت إلى آخر كان يخسر. عندما كان يخسر يُصبح عَصبيَّ المِزاج خبيثاً. كان يعود إلى المنزل مجنوناً ثائراً ويبحث عن أيّ ذريعة ليضرِبنا... كان يضرِب أُمّي أيضاً." توقّفت عن الكلام. أوقفها الألم. ألمٌ يصعد إلى أطراف أصابعها ويَغرِزها بمزيد من العمق في جذور شعرها الأسود. تبذُل جُهداً لتتابع: "في إحدى تلك المعارك، ربح مبلغاً كبيراً من المال، على ما أفترِض... لكنّه دفع كلَّ مالِه لشراء سُماناة لا تُقدَّر بثمن. وأمضى أسابيع كثيرة في إعدادها لمعركة بالغة الأهمية. و..." تضحك، من ذلك الضحك المُرّ الذي لا يخلو من السُّخرِيَة والقُنوط في آن معاً، وتُكمِل: "ولسُخرية القدر، فقد مُنِيَ بالخسارة. وإذ لم يعُد لديه مال لتسديد الرهان، تنازلَ عن أُختي. وكان على أُختي، البالغة اثنتي عشرة سنة من العمر، أن تذهب إلى رجل عمره أربعون سنة!" تترك أظفارُها جذورَ شعرها، وتنحدر إلى جبهتها لتلامِسَ النَّدبةَ في زاوية عَينها اليُسرى. "آنذاك، كان عمري لا يزيد عن عشر... لا..." تتساءل، "نعم، عشر سنوات. وكنت خائفة. خائفة من أن أُصبح أنا أيضاً قيمة رهان. عندئذ، أتعلم ماذا فعلتُ بسُماناته؟" تُسجّل وقفة. لا يُعرف أهي لإضفاء التشويق على سَرْدِها، أم لأنّها تتردَّد في كشف تَتِمَّتها. تستأنف أخيراً: "ذات يوم... وكان يوم جُمعة، بينما كان في المسجد لأداء الصلاة، قبل أن يذهب إلى حديقة قاف، أخرجتُ الطائر من القفص، وتركتُه يَفلتُ في حين كان هرٌّ شارد، أنْمرُ أصهبُ أبيضُ، يترصَّد هناك، على الحائط." تأخذ نفساً عميقاً. "وانقضَّ عليه الهِرُّ.

حمله إلى إحدى الزوايا ليلتهمه بهدوء. تَبِعتُه. ومكثت أتأمَّله. لم أنْسَ أبداً تلك اللحظة هناك. حتى أنّني تمنّيتُ للهرّ أن يأكل "هنيئاً". كنتُ سعيدة، راضية كلَّ الرِّضى برؤية هذا الهِرّ يأكل السُّماناة. كانت لحظة انتشاء. لكنْ سرعان ما راودني شعور بالغَيرة. أردتُ أن أكون أنا الهرَّ، هذا الهرَّ الذي يلتذُّ بُسماناة أبي. كنتُ غَيرانة وحزينة. هذا الهرُّ لا يعلم شيئاً عن قيمة هذه السُّماناة. لا يمكنه أن يشاطرني فرحي وانتصاري. يا لها من خيبة، قلت في نفسي؛ واندفعت راكضة نحو الهرّ لأستردّ بقايا الطائر. خمش وجهي وهرب حاملاً السُّماني. شعرتُ بأنّي محرومة جدّاً ويائسة حدّ أنّني أخذتُ ألْحَسُ، مثلَ ذُبابة، بعضَ نقاط من دم سُماناة أبي مُنتشرة على الأرض." تلتوي شفتاها كما لو أنّها لا تزال تُحسّ دِفء الدم الرطب. "أبي، عندما رجع، ووجد القفص فارغاً، جُنَّ جُنونُه. فقد السيطرة على نفسه. وأخذ يصرُخ. أوسعنا ضرباً، أُمّي، وأخواتي، وأنا، لأنّنا لم نحرُس سُمانته. سُماناته اللعينة! بينما كان يضرِبني، صرختُ قائلةً إنّ ما حصل كان أمراً جيداً... لأنَّه بسبب هذه السماناة اللعين كان على أُختي أن تذهب! فَهِمَ أبي كلَّ القضيّة. عندئذ حَبسني في القَبو. وكان مظلماً، أمضيتُ فيه يومَين. أدخل معي هِرّاً – هِرّاً شارداً آخر كان يطوف في المكان – محذّراً إيّاي بفرح من أنَّ الحيوان عندما يجوع سوف يجعلني فريسةً له. لكنْ، لِحُسْن الحظّ، كان منزلنا يَعِجُّ بالفئران. وغدا الهِرُّ صديقي." تتوقف. تترك ذكرياتها في القَبو، وتعود إلى نفسها، قُرب رجُلها، يُساورُها القلقُ، فترنو طويلاً إليه، وفجأة تبتعد عن الجدار. تُتَمتِم: "لكنْ... لكن لماذا رويتُ له كلَّ هذا؟" تنهض بتثاقل وقد أرهقتها الذكريات. "لم أشأ أبداً أن يطَّلِع عليها أحد. أبداً! ولا

أخواتي حتّى!" تغادر الغرفة مغيظةً. يتردّد صدَى مخاوفها في الرّواق: "جعل مني مجنونة. صيّرني ضعيفة. يدفعني إلى الكلام! إلى الاعتراف بأخطائي وآثامي. يُصغي إليّ! يسمعني. هذا مؤكّد! يسعى إلى النَّيل منّي، وتدميري!".

تنزوي في إحدى الغُرف لكي تستجمِعَ قلقَها في وحدة مطلقة.

ما زال الأولاد يصرُخون على الأنقاض.

تتحوَّل الشمسُ إلى الجهة الأخرى من المنزل، ساحِبةً بذلك خيوطَ أشِعّتها من ثقوب السماء الصفراء والزرقاء على الستارة.

في ما بعد، تعود المرأة، نظرتُها كئيبة ويداها ترتعشان. تقترب من الرجُل. تتوقّف. تأخذ نفساً عميقاً. وبحركة خاطفة تمسك الأنبوبة. تُغمض عينَيها وتسحبها من فمه. تدير ظهرها، مغمضة العينَين. تتقدَّم بِخُطى مُتعثِّرة. تنتحِبُ: "يا إلهي، سامحني!" تلتقطُ خِمارَها وتختفي.

تركُض. في الحديقة. في الشارع...

من الأنبوبة المعلّقة يتساقط الماء المُحلَّى - المُملَّح قطرةً قطرةً على جبهة الرجُل. يَنسابُ في تجويف تجاعيده، ويتجه نحو أصل أنفه، من حيثُ يُنتشِر في مَحْجِر العَين، ويَسيل على الخدّ المشقَّق لينتهي في الشارب الكثُ.

تأفُلُ الشمس.

تستيقظُ الأسلحة.

هذا المساء يُدمِّرون أيضاً.
وأيضاً، هذا المساء يقتُلون.
في الصباح
يَهطِلُ المطر.
يَهطِلُ على المدينة وأنقاضها.
يَهطِلُ على الأجساد وجُروحها.

بعد بضعة أنفاس على آخر قطرة ماء مُحلًّى - مملَّح يتردّد وقعُ أقدامٍ مُبلَّلة في الباحة، ويصل إلى الرِّواق. لا يخلع القادم حذاءه الموحل.

ينفرج باب الغرفة ببطء. إنّها المرأة. لا تجرؤ على الدخول. تَرقُبُ الرجلَ بقلقها الغريب. تدفع البابَ قليلاً إلى الأمام وتنتظر. لا شيء يتحرّك، تخلع حذاءها، وتنسلُّ بهدوء إلى الداخل لتتوقّف أمام فُتحة الباب. تركتْ يداها خِمارَها. وكانت ترتعش، من البرد أو من الخوف. ثمّ تقدَّمت إلى أن مسَّتْ قدماها الفِراش الذي يرقُد عليه الرجل.

الأنفاس ما زالت على إيقاعها المعتاد.
الفم ما زال مُنفرِجاً.
الهيئة ما زالت ساخرة.

العينان ما زالتا فارغتين، بلا روح... لكنّهما مبلَّلتان بالدموع، اليوم. تجلس القُرفُصاء مذعورة. "أنت... تبكي؟!" وتنهار. لكنْ سرعان ما تتبَيَّن أن الدموع لا تنحدر إلاّ من الأُنبوبة، من ماء مُحلًّى ومُملَّح.

من حُنجُرتها الجافة يَنبثِقُ صوت مُنهَك: "لكن مَن أنت؟". تصمُت لحظة، مقدار نفَسين "لماذا لا يُرسِلُ اللهُ عزرائيلَ للخلاص منك نهائياً؟!" تتساءل فجأة. "ما الذي يُريده منك؟" ترفع رأسَها. "ما الذي يريده منّي؟!" تشوب صوتها مسحة خفيفة من الحُزن: "يُريد أن يعاقبكِ!" لعلّك تقول لي. تهزّ رأسها علامة النفي وتقول بصوت أوضح: "لا تخدعْ نفسَك! لعلّه يريد أن يُعاقبَكَ أنت! إنّه يُبقيك حيّاً لكي ترى ما أنا قادرة على أن أجعل منك، معك. ربّما يجعل مني شيطانة... من أجلك، ضِدَّك! نعم، أنا شيطانتُكَ! من لحم وعظم!" تتَّخذُ لنفسها مكاناً على الفِراش لكي تتجنَّب نظرةَ الرجُل شِبْهَ الزُّجاجيّة. وتمكث فترة طويلة صامتة، مُتأمِّلة، غائبة في مكان آخرَ، بعيدٍ، بعيد جداً في الزمن، يوم وُلِدَت الشيطانة في داخلها.

"مع كلِّ ما اعترفتُ به أمسِ، قد تقول لي إنني كنتُ شيطانة منذ صغَري. شيطانة في عينَي والدي." تمَسُّ يدُها ذراعَ الرجُل مسّاً خفيفاً، وتُداعِبُها: "لكنْ من أجلك، لم أكن هكذا أبداً، أليس كذلك؟" تَهُزُّ رأسَها. "بلى... يمكن..." يسود صمتٌ مُثقَل بالشكّ والارتياب. "لكنّ كلَّ ما فعلته، كان من أجلك... لكي أحتفظَ بك. لا، لا، الحقّ يقال، لكي تحتفظ، أنت، بي. لكي لا تتركني! لهذا السبب فعلت..." جسدُها يتجمّع وينزوي جانباً، إزاء الرجُل. "فعلتُ كلَّ شيء من أجل أن تحتفظ بي. وليس فقط لأنّني كنت أحبّك، ولكن لكي لا تتخلّى عنّي. من دونك، ما كان ليبقى لي أحد. ولغدَوتُ منبوذةً من الجميع". تسكت. تحُكُّ صُدْغَها بيدها. "أعترف أنّني في البداية لم أكن واثقة من نفسي. لم أكن متأكّدة أنّ بوسعي أن أحبّك. كنتُ أسائل نفسي

كيف يُحَبُّ البطل. وكان هذا يبدو لي أمراً يتعذّر تحقُّقه، مثل حُلم. على مدى ثلاث سنوات كنتُ أحاول أن أتخيّلك... ثم جئتَ ذات يوم. اندسَسْتَ في السرير. وجثمتَ عليَّ. واحتككتَ بي... ولم تَصِل! ولم تجروْ حتّى أن تقول لي كلمة. في الظلام الدامس، مع قلبَينا اللذين كانا ينبضان بشدّة، وأنفاسنا المتقطّعة، وجسدَينا المبلَّلَين بالعرق...“ أغمضت عَينَيها. وانتقلت إلى مكان آخر، بعيداً من هذا الجسد الهامد. وغرقت كُلياً في ظلمة ليلة الرغبة تلك. ظمآنة. مكثت هنالك بُرهة. لم تَنبِس بكلمة. ولم تأتِ بحركة.

ثمّ: ”بعد ذلك، سرعان ما اعتدتُ عليك، على جسَدِك الأخرق، وعلى حضورك الفارغ الذي ما كنتُ أعرف آنذاك كيف أصِفُه... وشيئاً فشيئاً، أخذتُ أقلق عندما تغيب. وكنت أرقُب عودتك. وكان غيابك، ولو لفترة قصيرة جداً، يُغرقني في حالة غريبة... كان لديّ الانطباع بأن شيئاً ما ينقصني. ليس في المنزل، لكنْ في داخلي... كنتُ أشعر بأنّي فارغة. فأشرع في أكل أيّ شيء. وفي كلّ مرّة كانت أمُّك تأتي لرؤيتي نافذة الصبر وتسألني عمّا إذا كانت لديّ رغبة في التقيُّؤ. كانت تتخيّل أنني حامِل! عندما كنتُ أُطلع الآخرين – أخواتي – على مخاوفي، وتقلُّب مِزاجي في أثناء غيابك، كانوا يجيبونني بأنني مُغْرَمة بكلّ بساطة. بعد خمسة أشهر، أو ستّة، تغيَّر كلّ شيء. أُمُّك التي اقتنعت بأنني عاقر أخذت تضايقني. وأنت أيضاً، من جهة ثانية. لكن...“ ترتفع يدها إلى ما فوق رأسها وتقوم بحركة كما لو أنّها تطرُد تَتِمَّة الكلمات التي أرهقتها.

بعد بِضع لحظات – خمسة أنفاس أو سِتّة – تابعت قائلةً: ”وحملتَ

أنت السلاح مُجدّداً. ذهبتَ إلى تلك الحرب العبثية، حرب الأُخْوَة. وغدَوتَ مُدَّعِياً، مُتغطرِساً، عنيفاً. مثلَ كلّ عائلتك، ما عدا أباك. أمّا الآخرون فكانوا يحتقرونني. أُمُّك كانت تقتلها الرغبة في أن تراك مُتّخذاً زوجة ثانية. عندئذ، أدركتُ سريعاً ما الذي ينتظرني. مصيري. أنتَ لا تعلم شيئاً من كلّ هذا... لا شيء من كلّ ما استطعتُ فعلَه من أجل أن تحتفظ بي". تضعُ رأسَها على ذِراع الرجُل. وتبتسمُ ابتسامة عذبة، كما لو أنّها تلتمسُ رأفتَه. "سوف تغفر لي، ذات يوم، كلَّ ما فعلتُه..." تنقبضُ ملامحُها. "لكن، عندما أفكّر في ذلك الآن... لو كنتَ قد علمتَ، لكنتَ قتلتني في الحال!". ألقت بنَفسها على الرجُل، وحدّقت فيه مطوّلاً، في عينَيه الغائبتَين مباشرةً. ثم وضعت خدَّها على صدره، بحنان: "ما أغربَ هذا! ما أحسسْتُ قطّ بأني قريبة منك إلى هذا الحدّ مثليَ الآن. عشر سنوات مضت على زواجنا، عشر سنوات! غير أنّي لم أشاركك في شيء إلاّ أخيراً، منذ ثلاثة أسابيع فقط". تُلامسُ يدُها شعرَ الرجُل. "يمكنني أن ألمسك... لم تدعني ألمسك أبداً، أبداً! تَميل نحو فم الرجُل. "لم أقبّلك من قبلُ قطّ." تُقبّله. "عندما أردتُ أن أقبّلك على شفتَيك للمرّة الأولى صَددْتني. كنتُ أريد أن أفعل كما يفعلون في الأفلام الهندية. كنتَ خائفاً، ربّما، هذا صحيح؟" تسأله لاهيَةً. "نعم. كنتَ خائفاً لأنّك لم تكن تعرف كيف تُقبّل فتاة" تلامسُ شفتاها لِحْيَته الكثّة "الآن أستطيع أن أفعل أيَّ شيء معك!" ترفع رأسها لكي ترى على نحوٍ أفضلَ رجُلَها ذا النظرة الفارغة. تُحدِّق فيه مُطوَّلاً، من قُرب. "يمكنني أن أحدِّثك بكل شيء، من دون أن أُقاطَع، ومن دون أن أُلام!" تلصِق رأسَها بكتِفه. "أمسِ، عندما ذهبتُ، راودني شعور غريب، يتعذّر

تحديدُه. شعرت بأنّي حزينة ومُنشرحة، شقيّة وسعيدة، في آن". يسرح نظرُها في كثافة اللِّحْيَة. "نعم، انشراح عجيب. لم أتمكّن من إدراك السَّبب، فعلى الرغم ممّا في داخلي من عوامل القلق والشعور بالإثم أحسَسْتُ بأنّي هادئة، خفيفة. لم أدْرِ أكان ذلك بِسَبب..." تتوقف. وكما يحصل دائماً، لا يُعرَفُ هل تُعلِّقُ تفكيرها، أو تبحث عن كلماتها.

تضعُ رأسَها من جديد على صدر الرجُل، وتستأنف كلامَها: "نعم، فكّرتُ في أنني كنتُ مرتاحة لأنّني تمكّنت أخيراً من التخلّي عنك... أن أدعك تموت... وأتخلّص منك!" تضغط بجسدها على جسد الرجُل الهامد، كما لو أنها تشعر بالبرد. "نعم، أن أتخلّص منك... لأنّني ظننتُ أمسِ، على نحو مفاجئ، أنّك كنت واعياً على الدوام، سليم العقل والجسم، وأنّك تريد أن تحملني على الكلام، وتطّلع على أسراري، وتُسَيطر عليّ. عندئذٍ خفتُ." تُقبِّل صدرَه. "هل تُسامحني؟" وترمُقه بحنان. "عندما خرجتُ من البيت، متواريةً بشادوري، همتُ على وجهي في شوارع هذه المدينة الصمّاء العمياء. مثل مجنونة! ولّما وصلتُ إلى بيت عمّتي ظنَّ الجميع أنّني مريضة. هرعت فوراً إلى غرفتي لأنطوي على بؤسي وضيقي، وشعوري بالإثم. أمضيتُ ليلةً بيضاء لم يغمُض لي فيها جفن. وتولّد لديّ الانطباع بأنّني وحش، شيطانة حقيقية! كنتُ مُرتاعة. هل كنتُ قد أصبحتُ مجنونة، مُجرمة؟" انفصلتْ عن جسد رجُلها. "مِثلَكَ، مثلَ نُظرائك، مثلَ أولئك الذين قطعوا رؤوس كلّ أفراد العائلة المجاورة! نعم، أنا أنتمي إلى مُعسكرك. كان الوصول إلى هذه الخُلاصة رهيباً. بكيتُ طولَ الليلة." اقتربتْ منه "إذاً، في الصباح، فجراً، قُبَيل هُطول المطر، فتحت الريحُ النافذة... شعرتُ

بالبرد... والخوف. التصقتُ بابنتّي... أحسَسْتُ بحضورٍ ما ورائي. لم أجرؤ على الالتفات. شعرتُ بيد تلامسني. وعَجِزتُ عن الحراك. سمعتُ صوتَ أبي. استجمعتُ كلَّ قُواي لألتفتَ إلى الوراء. كان هناك. بلحْيَته البيضاء، وعينَيه الضيِّقتَين اللتين كانتا تلتمعان في الظلام، وقامته المَنكسِرَة. كانت بين يديه السُّماناة التي أسلمتُها للهرّ. كانت سُماناته قد عادت إلى الحياة، زعم، بفضل كلّ ما استطعتُ أن أرويه لك البارحة. عندئذٍ قبّلني. ولمّا نهضتُ، لم يعُد هناك. عادَ أدْراجَه، ذاهباً مع الريح، تحت المطر. أكان ذلك حُلماً؟ لا... كان حقيقياً جدّاً! نَفَسُه على رقَبتي، وخُشونةُ راحته على بَشرتي..." وضعتْ يدَها تحت ذَقْنها لكي تُبقي رأسها مرفوعاً. "زيارتُه سحرتْني، ألهمتني، فهمتُ أخيراً أنّ محاولتي التخلّي عنك وإسلامِكَ لموتك لم تكن سببَ انشراحي." تمطّتْ. "هل تفهمني؟... في الواقع، ما حرّرني هو روايتي لهذه الحكاية، حكاية السُّماناة. هو أنّني قلتُ كلَّ شيء. قلتُه لك، أنت. عندها أدركتُ فعلاً أنّني منذ أن أصبحتَ أنتَ مريضاً، ومنذ أن بدأتُ أنا أكلِّمكَ، وتثور أعصابي ضِدَّك، وأشتُمك، وأقول لك كلَّ ما كتمتُه في قلبي، وأنت لا تستطيع الإجابة بشيء، وتعجز عن الإتيان بأيّ شيء ضدّي... كان هذا يقوّي عزيمتي، ويُهدِّئني". أمسكتْ بكتِفي الرجُل: "والحال أنّني إذا ما شعرتُ بأني منشرحة، ومتحرِّرة... وذلك على الرغم من الشقاء الذي يصفعنا في كلّ لحظة، فذلك بفضل أسراري، بفضلكَ. أنا لستُ شيطانة!" تركتْ كتفَيه، وراحت تعبَث بلحيته. "لأنّني بتُّ أمتلك جسدَك من الآن فصاعداً، وأنت تملكُ أسراري. أنت هنا من أجلي. لا أدري إن كنتَ تستطيع أن تراني أو لا، لكنّني واثقة كلَّ الثقة من شيء

واحد، وهو أنّك تستطيع أن تسمعني، تستطيع أن تفهمني. من أجل هذا أنت لا تزال على قيد الحياة. نعم، أنت حيٌّ من أجلي، من أجل أسراري." تَهُزُّه "سوف ترى. كما تمكّنتْ أسراري من إحياء سُماناة أبي، كذلك سوف تجعلك تعيش! انظرْ، منذ ثلاثة أسابيع وأنت تعيش مع رصاصة في العُنُق. لم يُرَ مثلُ هذا أبداً، أبداً! لا أحد يُمكنه أن يُصدّق هذا، لا أحد. أنت لا تأكل، ولا تشرب، وما زلتَ هنا! هذه أُعجوبة في الواقع. أُعجوبة من أجلي، بفضلي. تنفُّسُك مُعلّق برواية أسراري." نهضتْ، بخِفّة، ثمّ تسمَّرتْ في حركة كلُّها لُطفٌ وعَطف: "لكن، لا تقلق، أسراري لا نِهاية لها." وتجاوزت كلماتها الباب: "الآن، ما عدتُ أرغب في فَقدك!".

عادت لتملأ كيسَ الحقن. "الآنَ، فهمتُ ما الذي كان يقوله والدك بشأن حجر مُقدَّس. كان ذلك في أواخر أيّامه. أنت، كنتَ غائباً، ذهبتَ مرّة أخرى إلى الحرب. منذ بضعة أشهر، قُبَيل أن تتلقّى تلك الرصاصة، كان والدك مريضاً؛ و لم يوجد أحد غيري للعناية به. كان مأخوذاً بحجر سحريّ. حجر أسود. كان يتكلّم عنه باستمرار... ماذا كان يُسميه... ذلك الحجر؟" تبحث عن الكلمة. "كان يدأب على أن يطلُب من أصدقائه الذين يعودونه أن يجلبوا له ذلك الحجر... حجر أسود، كريم..." تُدخل الأُنبوبةَ في فم الرجُل. "تعلمُ، ذلك الحجر الذي تضعه أمامَك... وتشرَعُ أمامَه في الشكوى والنواح على كل مصائبِك، كلِّ عذاباتك، كلِّ آلامك، كلِّ بُؤسك... والذي تُفضي إليه بكل ما في قلبك ولا تجرؤ على البوح به للآخرين...". تضبُط التنقيط. "وأنت تُكلِّمه، وتُكلّمه. والحجر يُصغي إليك، يمتصُّ كلَّ كلماتك، وأسرارِك،

إلى أن ينفجر ذاتَ يوم، ويتفتّت." تُنظِّف عَيني الرجُل وترطِّبهما. "وفي ذلك اليوم، تتخلّص من كلّ عذاباتك، من كلِّ متاعبك... ما اسمُ ذلك الحجر؟" تُرتِّبُ الشرشفَ. "عشيَّة وفاته، استدعاني والدك، لأكون وحدي بقُربه. كان يُحتضَر. همس لي: "يا ابنتي، ظهر لي ملاكُ الموت، برفقة الملاك جبرائيل. هذا الأخير كشف لي سِرّاً أُفضي به إليك. الآن، أعرف أين يوجد هذا الحجر. إنّه في الكعبة، في مكّة! في بيت الله. تعرفين، ذلك الحجر الأسود الذي يطوف حوله ملايين الحجّاج في العيد الكبير! إذاً، هذا الحجر ليس سوى الحجر الذي كنت أحدِّثكِ عنه... في الجنّة، كان هذا الحجر مقعداً لآدم... لكن بعد أن طرد الله آدمَ وحوّاء إلى الأرض، أنزله لكي يتمكّن أبناء آدم من أن يكلّموه عن مشقّاتهم وعذاباتهم... وهذا الحجر نفسه هو الذي قدَّمه جبرائيل لهاجَرَ وولدها إسماعيل كمخدَّة بعد أن أبعد إبراهيمُ الجارية وولدها إلى الصحراء... نعم، إنّه حجر لكلِّ مصائب الأرض. اذهبي إلى هناك. بوحي له بأسرارك إلى أن ينكسر... إلى أن تتخلصي من آلامك" طغتْ صِبْغَة الحزن الرماديّة على شفتَيها. ومكثتْ بُرهةً في صمت الحِداد.

تابعت بصوت أبَحّ: "منذ قرون كثيرة والحُجّاج يَؤمّون مكّة ليطوفوا ويصلّوا حول ذلك الحجر، وإنّي لأتساءل حقاً كيف أنّه لم ينفجر بعد". أرنَّتْ صوتَها ضحكةٌ ساخرة، واستعادت شفتاها لونَهما: "سوف ينفجر ذاتَ يوم، وفي ذلك اليوم سيكون فناء البشرية، لعلّ هذا نهاية العالم".

شخص ما يمشي في الباحة. تسكتُ المرأة. تبتعد الخُطى. تَسْتأنِفُ الكلام: "أتعلمُ ماذا؟... أعتقد أنّني اكتشفتُه، الحجرَ السحريّ، حجري

أنا." الأصواتُ الآتية من بين أنقاض المنزل المُجاوِر تمنعها مُجدَّداً من مواصلة تفكيرها. تنهض مُسْتثارةً وتتجهُ نحو النافذة، وتفتح الستارتين. أذهلها ما رأت. غطّت يدُها فمَها. ولبِثت خرساء. أغلقت الستارتين، وراحت تراقب المشهد من خلال ثقوب السماء الصفراء والزرقاء. وهتفت: "إنهم يدفنون الأموات في حديقتهم الخاصة... أين العجوز؟" ومكثت ساكنة وقتاً طويلاً. ثم عادت مرهقةً إلى جِوار رجُلها. تمدّدت على الفراش إزاء رأسه. وغطّت عَينَيها بباطن ذراعها، وأخذت تتنفّس بعمق وسكون، كما في السابق. على إيقاع تنفُّس الرجل.

يمَّحي صوت المُلاّ، الذي يتلو آيات من القرآن في مناسبة الدفن، تحت المطر. يرفع المُلاّ صوته، ويُسرع في الصلاة لإنهائها في أسرع وقت.

تتبدَّد الجلبةُ والوشوشات في الأنقاض المُبْتلَّة.

يقترب أحدهم من المنزل. وها هو خلف الباب. يقرع. لا تتحرك المرأة. يتكرّر القرع. "هل يوجد أحد؟ هذا أنا، المُلاّ"، يقول نافدَ الصبر. لا تستجيب المرأة للصياح، ولا تتحرك. يُدمدم المُلاّ بضعَ كلمات وينصرف. عندها نهضت لتجلس مستندة إلى الجدار حيث مكثت إلى أن تلاشت خُطوات المُلاّ المبلَّلة في الشارع.

"يجب أن أذهب إلى عمّتي. عليَّ أن أجد الطفلتَين!". تنهض. تمكُث واقفة بعضَ الوقت، المدّة الكافية لسماع بضعة أنفاس من الرجل.

قبل أن تتناول خِمارَها، تنبثق من بين شفتَيها هاتان الكلمتان "سَنْكَك صبور!" تنتفض، "هذا هو اسم ذلك الحجر: سنْكَه صبور، حَجَرُ الصَّبْر! الحجر السِّحري!"، تُقرفِص على مَقرُبة من الرجُل. "نعم، أنتَ حجر الصبر الخاصّ بي". تلمس وجهه مسّاً حفيفاً ناعماً، كما لو

أنّه حجرٌ كريم حقّاً. "سأقول لك كلَّ شيء، يا حجرَ صبري، كلَّ شيء. إلى أن أتخلّص من عذاباتي، من مصائبي، إلى أن تـ... أنت" وتسكت عن البقيّة، تاركةً للرجل أن يتخيّلها.

غادرت الغُرفةَ، والرِّواق، والبيت...

بعد أربعة أنفاس، عادت لاهثةً، ألقت خمارَها المُبلَّل أرضاً، وهرعت نحو الرجُل. "ستحصُل دوريات أيضاً هذا المساء. من المعسكر الآخر، أظنُّ، هذه المرّة. إنّهم يُفتّشون كلَّ المنازل... يجب ألاّ يجدوك... سيُجهزون عليك!" ركعت، وحدّقت فيه من أقرب مكان. "لن أدعهم! أنا بحاجة إليك الآن، يا حجر صبري!" توجّهت نحو الباب "يجب أن أُهَيِّئ القَبو"، وخرجت من الغرفة.

يَصُرُّ بابٌ، وترِنّ خطواتها على درجات السُّلَّم. فجأةً، تصرخ يائسةً: "أوه، لا! ليس هذا!". تصعد مذعورةً. "القَبْوُ تغمرُه المياه." تذرعُ الغرفة جيئة وذهاباً. يدُها على جبهتها، كما لو أنّها تبحث في ذاكرتها عن مكان تُخبِّئ فيه رجُلها. لا تجد شيئاً. إذاً، هنا، في هذه الغُرفة. وبحركة واثقة تُقرِّب يدَها من الستارة الخضراء، وتسحبها. كانت حُجرة مُهمَلات، مُمتلئة بالمخَدّات، والأغطية والفُرش المكدَّسة.

بعد أن أفرغت المكانَ، مدّت فِراشاً. كان كبيراً جداً، فطوته وأحاطته بالوسائد. تراجعت خُطوة لكي ترى الترتيب على نحو أفضل – الزاوية المخفية لحَجرها الكريم. تقدّمت من رجُلها راضيةً عن عملها. وبكثير من العناية أخرجت الأنبوبة من فمه، وأمسكت بكتِفَيه، ورفعته. جرّت الجسدَ، وسحبته على الفراش. وضعته، شبه جالس، بين الوسائد، في مقابل مدخل الغرفة. نظرة الرجل الخالية من التعبير ظلّت رانيةً إلى مكان

ما على البساط. علّقت كيس الحقن على الجدار، وأعادت الأنبوبة إلى فم الرجل. ثم أغلقت الستارة الخضراء، وأخفت المخبأ بالفُرش والأغطية الأخرى. لا مجال للشكّ في أي حضور.

"سأعود غداً"، همست. ولمّا بلغت عتبة الباب وانحنت لالتقاط خِمارها، دوّى فجأةً طلقٌ نارِيّ، ليس بعيداً جداً، فسمّرها في مكانها، وجمّد حركتها. طلقٌ ناريّ ثانٍ أقرب. طلقٌ ثالث... ثم انهمر إطلاق النار من كلّ الجهات، وفي كل الاتجاهات.

جلست على الأرض تشكو، "طفلتاي..." فلا يسمع شكواها أحد، وتَضمحِلّ في صلصلة دبّابة تسير. زحفت على رُكبتيها نحو النافذة. وراحت ترصد ما يجري في الخارج من خلال ثقوب الستارة. ومن صدرها انبعثت صرخةٌ ممزوجة بالدموع: "يا إلهي، احفظنا!"

استندت إلى الجدار الذي يفصل بين النافذتين، تماماً تحت الخِنجر وصورة الرجُل الساخر.

تأوّهت بهدوء.

أطلق أحدُهم النار قُرب المنزل. لعلّه داخل الباحة، متمترساً خلف الجدار. حبسَت المرأة دموعَها، وأنفاسَها. رفعت طرف الستارة الأسفل. ولمّا شاهدت خيالاً يطلق النار باتجاه الشارع، تراجعت بغتةً، واقتربت من الباب بحذر.

حالما وصلت إلى الرّواق، منعها ظِلُّ الرجل من التحرُّك "عودي إلى الغرفة!" ورجعت إلى الغرفة. "اجلسِي ولا تأتي بحركة!" فجلست حيث كان رجُلها ممدّداً، ولم تتحرّك. برز من الرّواق المظلم رجل، يعتمّ بِعمامةً يغطي طرفُها نِصفَ وجهه. اجتاح إطار البابَ وسيطر على

الغرفة. من شقّ عِمامته، جالت نظرته المعتمة في أركان الغرفة. ومن دون أن ينبس ببنت شفة تقدّم نحو النافذة وألقى نظرةً على الشارع حيث لم ينقطع إطلاق النار. ثم التفت نحو المرأة لكي يطمئنها: "لا تخشَي شيئاً، يا أُخت، أنا أحميك." ومن جديد، راح يراقب المحيط. لم تكن مذعورة، بل قانِطة. غير أنها تظاهرت بأنها صافية الذهن، واثقة من نفسها.

ولمّا كانت جالسة بين رجلين، أحدهما مختبئ وراء عِمامة سوداء، والآخر خلف ستارة خضراء، راحت تلقي نظرات قلقة.

كان الرجل المسلّح جاثماً على كعبَيه، وإصبُعه على الزناد.

آخِذاً حِذْرَهُ، ومُحترساً، أدار رأسَه عن السِتارة نحو المرأة، وسألها: "أنتِ وحيدة؟". أجابت هي بصوت هادئ، هادئ جدّاً: "لا". سكتت لحظة لكي تتابع قائلةً بحِدَّة: "الله معي"، ثُم لتُلقي نظرة على الستارة الخضراء.

سكت الرجل. وحدَج المرأةَ.

في الخارج، توقف إطلاق النار. وفي البعيد، لم يبقَ شيء سوى هدير دبابة تغادر المكان.

أما الغرفة، والباحة والشارع، فقد غرقت في صمت عميق ومُدخَّن.

انتفض الرجُل المسلَّح لسماع وقع أقدام، فصوّب سلاحه نحو المرأة، مشيراً إليها بعدم التحرّك. ألصق عَينه في أحد ثُقوب الستارة. ثم تراخى

كتفاه المشدودان، وبدا عليه الارتياح. رفع الستارة، وبصوتٍ حفيض أطلَق صفرة رمزية. توقفت الخطى. وهمس الرجل: "إيه، هذا أنا. تعالَ، أدخُل!"

وَلجَ الآخر إلى الغرفة. هو أيضاً يعتمّ بعمامة يغطي طرفها نِصفَ وجهه. ويلفّ شالٌ طويل من الصوف جسدَه النحيل والطويل. وإذ فوجئ بحضور المرأة، جلس إلى جانب رفيقه، الذي سأله: "إذاً؟" أجاب الآخر ونظره عالق بالمرأة: "هـ هـ هذا جـ... جيّد، حـ حـ حصل ووقف لإطلق النـ... نار!" تَعْتَع بصوتٍ مُراهق يقترب من سِنّ البلوغ.

"حتّى متى؟

– لا... لا أأأ أعرف!" أجاب الآخرُ، وهو لا يزال مأخوذاً بحضور المرأة.

"طيّب، اذهب الآن لتقوم بالحِراسة! سوف نُعسكِر هنا هذه الليلة."

لم يعترض الشاب. طلب، وعيناه ما زالتا مركزتين على المرأة: "سـ سـ سيكارة" ألقاها إليه الرجل ليتخلّص منه في أسرع وقت. وهو نفسُه، بعد أن كشف كلّياً وجهه الملتحي، أشعل سيكارة.

قبل أن يجتاز عتبة الباب، ألقى الصبيُّ نظرةً أخيرة مبهورة على المرأة، واختفى، على مضض، في الرّواق.

لبثت المرأة في مكانها. وراحت تُراقب كلَّ حركة يأتي بها الرجُل برية تحاول إخفاءها دائماً. "ألا تخافين من البقاء وحيدة؟" سألها الرجُل، وهو ينفث دخان سيكارته. هزّت كتفَيها. "هل أملِك الخيار؟". بعد أن اجتذب الرجل نفساً طويلاً من دخان السيكارة، استعلم: "أما لديكِ

أحد للعناية بكِ؟" ألقت المرأة نظرةً على الستارة الخضراء. "لا، أنا أرملة!

– من مُعسكركم، على ما أظنّ."

كفَّ الرجل عن الإلحاح. اجتذب نفساً آخر عميقاً، وتابع: "لديك أولاد؟"

– نعم، اثنان... بِنتان.

– أين هما؟

– عند عمّتي.

– وأنتِ، لِمَ أنتِ هنا؟

– لأعمل. يجب أن أكسب قُوتي، أن أُطعم طفلتَيّ.

– وما هو عملك؟"

نظرت المرأة في عينَيه مباشرةً، ولطمتْه بقولها: "أكسبُ قُوتي بعرق جسدي.

– ماذا؟ سأل، مُرتبكاً.

أجابت المرأة بلهجة لا تَشِي بأي حياء: "أبيع لحمي.

– ما هذه الحماقة؟

– أبيع لحمي، كما تبيعون أنتم دمكم.

– ما هذا الكلام؟

– أبيع لحمي لأمنح الرجال لذّة!"

انتفض الرجل غضباً، وتجشّأ: "يا الله، الرحمن! المؤمن! احفظني!

– مِمَّن؟"

دخان السيكارة يخرج بعنف من فم الرجل الذي يَستمرّ في التضرّع: "باسم الله!"، يطرد الشيطان، "احفظني من الشيطان!" يبتلع مِلء فمه

من دخان السيكارة الذي يخرج مع كلمات مسعورة: "لكن ألا تخجلين من قول هذا؟!

- مِن قولها أو مِن فعلها؟

- أنتِ مُسلمة، أم لا؟!

- أنا مُسلِمة.

- سوف يرجمونك! سوف يُحرِقونكِ حيّةً في نار جهنّم!"

نهض وهو يتلو آية طويلة من القرآن. لبثت المرأة جالسة. وراحت تنظر إليه بتحدٍّ، من رأسه إلى قدمَيه، ومن قدميه إلى رأسه. أما هو فسال لُعابُه. وحجب دُخان سيكارته تشعُّث لحيته، وسواد عينَيه. تقدَّم متجهِّماً. وزعق وهو يُصوِّب سلاحه على المرأة: "سأقتلك، يا قحبة!" ومسّ بطنها بالسبطانة. "أريد أن أُفجِّر قِطّكِ المتعفّن! أيتها العاهرة القذِرة! شيطانة!" وبصق في وجهها. غير أن المرأة لم تتحرّك. ازدرت الرجُل. وبدا أنّها تحثّه على إطلاق النار غير متأثرة.

صرف الرجل بأسنانه، وأطلق صرخةً صارّة. وغادر المنزل.

تمالكت المرأة جسارتها إلى أن سمعت الرجل يخرج إلى الباحة، وينادي الآخر: "تعال، سنرحل من هنا. هذا منزل كافر!"، وإلى أن تلاشى وقع خُطواتهما في الشارع الموحِل.

أغمضت عينَيها، وتنهّدت، زافرةً هواء الغرفة المشبع بالدخان الذي حبسته مطوَّلاً في صدرها. وارتسمت ابتسامة انتصار على شفتَيها الجافّتَين. وبعد أن ألقت نظرة طويلة على الستارة الخضراء،

مطّت جسدها واقتربت من رجُلها: "سامحني!" همستْ. "كنت مُجبَرةً على أن أقول له هذا الكلام، وإلاّ لكان قد اغتصبني." هزّتها ضحكةٌ هازئة. "لرجال مثله، لا تُعدُّ مضاجعة مومس، واغتصابها، عملاً باهراً. فأن يضع قذارته في ثُقب استُعمِل من قبله مئات المرّات لا يجلب أيّ مفخرة رجولية. أليس كذلك، يا حجر صبري؟ هذا شيء ينبغي أن تكون قد عرفته. الرجالُ مثلُه يخافون المومسات. أتدري لماذا؟ سأقوله لك، يا حجر صبري: عندما تضاجعون مومساً لا تمتلكون جسدَها. أنتم في وضع تبادل. أنتم تعطونها مالاً، وهي تعطيكم لذّة. ويمكنني أن أقول لك إنها هي التي تسيطر عليكم في غالب الأحيان، هي التي تضاجعكم." هدأت. وبصوت رزين مضت تقول: "إذاً، اغتصاب مومس ليس اغتصاباً. لكنّ انتهاك بكارة فتاة يعني اغتصاب شرف امرأة! تلك هي عقيدتكم!" توقّفت. سمحت بانقضاء مدّة طويلة بغية أن تترك لزوجها – إذا ما استطاع، وهذا ما تأمُله – الفرصة لكي يتأمّل مَلِيّاً هذه الأقوال.

واصلت كلامها: "يا حجر صبري، ألستَ موافقاً؟" تقترب أيضاً من الستارة، تزيح قليلاً الفُرش التي تُخفي المخبأ. تنظر إلى رجُلها في عينيه مباشرةً، وتقول: "آملُ مع ذلك أن تتمكّن من إدراك واستيعاب كلّ ما أقوله لك، يا حجر صبري.". تزيح برأسها الستارة قليلاً: "لعلّك تتساءل من أين أمكنني أن أعلم كلّ هذا! أوه، يا حجر صبري، لديّ أشياء كثيرة لأقولها لك..." تتراجع. "أشياء تراكمت منذ زمن في داخلي، ولم تُتَحْ لنا الفرصة أبداً للكلام عنها، أو، ولنكن صريحَين، أنت لم تُتِحْ لي أبداً

الفرصة للكلام عنها." . سكتت بُرهةً، مُدّةَ نَفسٍ واحد، لكي تتساءل من أين تبدأ وبماذا. غير أنّ نداء المُلاّ داعياً المؤمنين لأداء صلاة المغرب أجفلها، وردّ أسرارها إلى صدرها. نهضت بغتةً "ليقطع الله لساني! الليل يهبِط! طفلتاي!" وأسرعت لترفع الستارة ذات الطيور المهاجرة. وخلف حجاب المطر الرمادي، غرق كلُّ شيء في محيط مُعتِم وكئيب.

قضت وقتاً في التحقّق من تواتر نقاط الماء المُحلّى المُملَّح، وارتداء خِمارها، وغلق الأبواب والوصول إلى الباحة، ففات الأوان. بعد أن فَرغ المُلاّ من الأذان أعلن منع التجوال في الحيّ، وطلب احترام الهُدنة.

توقفت خُطوات المرأة على الأرض المبلّلة.

تردّدت.

تلاشت.

عادت أدراجَها.

رجعت المرأة إلى الغرفة.

ألقت خِمارها على الأرض مَغيظةً، وسقطت مرهقةً على الفراش الذي كان يشغله رجُلها من قبل. "ابنتاي، أتركهما في يد الله!" وتلت سورة من القرآن مقوّيةً إيمانها بقدرة الله على حماية ابنتَيها. ثم تمدّدت مستسلمةً لعتمة الغرفة. ونظرها الذي ينفذ عبر الظلال بقي مشدوداً إلى الفُرش. خلف الفُرش، الستارة الخضراء. وخلف الستارة، رجلُها، حجرُ صبرِها.

طلقٌ ناريٌّ، بعيد. ثم آخر، قريب. وهكذا توقّف وقفُ إطلاق النار.

نهضت المرأة، ثم توجهت نحو الستارة الخضراء الوحيدة. أزاحت الفُرش لكنّها لم تنحِّ الستارة "عليَّ إذاً أن أبقى هنا. لديّ ليلة بطولها أكلّمك فيها، يا حجرَ صبري. لكنْ قبلاً، عمَّ كنت أحدّثك قبل أن يزعق هذا المُلاّ الغبي؟" فكّرت مَلِيّاً. "آه، نعم، كنتَ تتساءل من أين أمكنني استخراج هذه الأفكار. هذا ما كان، أليس كذلك؟ كان لديّ معلِّمان في حياتي، عمّتي وأبوك. من عمّتي تعلّمت كيفية العيش مع الرجال، ومن أبيك تعلّمت لماذا العيش معهم. عمّتي..." أزاحت الستارة قليلاً. "كنتَ لا تعرف شيئاً عنها، لحسن الحظ. الآن يمكنني أن أحكي لك كل شيء. إنّها الأخت الوحيدة لأبي. ويا لها من امرأة! كبِرتُ مغمورةً بلُطفها. أحببتُها أكثر مما أحببتُ أمّي. كانت كريمة. جميلة. فائقة الجمال. رحبة الصدر. هي التي علّمتني القراءة، والعيش... لكنّ مصيرها كان مأسويّاً. كانت متزوجة من رجل رديء وغنيّ جداً. رجل كريه. محشوّ بالمال القذر. مضى عامان على زواجهما و لم تُنجِب له ولداً. أقول: له، لأنّ هذا هو ما يُعشّش في رؤوسكم، أنتم الرجال. باختصار، كانت عمَّتي عاقراً. وبعبارة أخرى: لا تصلح لشيء. عندئذ أرسلها زوجها إلى الرِّيف عند ذويه لتخدمهم. ولأنّها كانت عاقِراً وحَسناء، كان حماها يضاجعها بهدوء، وبكل أمان. نهاراً وليلاً. وذات يوم لم تعد تحتمل، فهشّمت جُمجمته، فطردوها من بيت حمَويها. نبذها زوجها أيضاً. وتخلَّت عنها عائلتها، بمن فيهم أبي. عندئذ اختفت هي، "لطخة عار" العائلة، تاركةً كلمة تقول فيها إنّها وضعت حدّاً لحياتها. صارت جسداً

هالكاً، غدا رماداً. لم يبقَ له أثر، ولا عُرِف له قبر، ولا ريب في أن هذا قد أراح الجميع. فلا مأتم، ولا جنازة لتلك "القحبة"! كنتُ أنا الوحيدة التي بكت. آنذاك كنتُ في الرابعة عشرة من عمري. و لم أنقطع عن التفكير فيها." توقّفت. أحنت رأسها. أغمضت عينَيها كما لو أنّها تحلُم بها في هذه اللحظة بالذات.

بعد بضعة أنفاس، أكملت وكأنّها في حُلم: "منذ أكثر من سبع سنوات، قُبَيل عودتك من الحرب، كنت أتجوّل مع والدتك في السوق. توقّفت عند بائع الملابس الداخلية. سمعتُ صوتاً معروفاً، فالتفتّ، لأرى عمَّتي! ظننتُ للوهلة الأولى أنني واهمة. لكن لا، كانت هي حقاً. ناديتها باسمها، فتصرّفت كما لو أنّه ليس اسمها. لكنْ أنا، كنت واثقة من ذلك كلَّ الثقة. كان دمي يقول لي إنّها هي. عندئذ ابتعدتُ عن أمّك، كما لو أنني أضعتها. ورحتُ ألاحق عمّتي. لازمتُها كظلّها حتى بلغت منزلها. أوقفتُها أمام الباب، فانفجرت بالبكاء. احتضنتني، وأخذتني معها. آنذاك كانت تعيش في مَبْغَى." لزِمَت الصمتَ ليأخذ رجُلها الجاثم وراء الستارة الخضراء بعضَ الأنفاس، شهيقاً وزفيراً. ولتفعل هي ذلك أيضاً.

في المدينة، ما زال إطلاق النار مستمرّاً. من بعيد، ومن قريب، عَشْوائياً.

في الغرفة، كان كلُّ شيء غارقاً في ظلمة الليل.

قالت: "أنا جائعة"، وقامت تمشي مُتحسِّسةً طريقها إلى الرواق، فالمطبخ بحثاً عن شيء تأكله. أشعلت أولاً قنديلاً أضاء الرواقَ جُزئياً، كما أضاء الغرفة إضاءةً خفيفة. وبعد اصطِفاف بعض أبواب خزائن الحائط عادت، وفي إحدى يديها بَصلة وقطعة خبز كبيرة قاسية من عدّة أيام، وفي اليد الأخرى قنديل مُضادّ للريح. جلست في مكانها قُبالة رجُلها، إلى جانب الستارة الخضراء التي أزاحتها في ضوء القنديل المُصفَرّ لكي تتحقّق إذا ما كان حجر صبرها قد انفجر. لا. ما زال هناك. قطعةً واحدة. عيناه مفتوحتان. وهيئته ساخرة، حتى مع هذه الأنبوبة الموَلجة في فمه المنفرِج على نحوٍ محزن. وما زال صدره يعلو ويهبِط، بأعجوبة، وبالوتيرة نفسها كما في السابق.

"واليوم، عمّتي هذه هي التي تستقبلني. إنّها تُحِبّ طفلتَيّ، وهما يُحِبّانها أيضاً. من أجل ذلك خفّت وساوسي." تقشر البصلة. "تحكي لهم حكايات... كما كانت تفعل من قبل. أنا أيضاً، كبرتُ مع حكاياتها.". تضع قطعة بصل صغيرة على كِسْرة خُبز وتولِجُ الكلَّ في فمها. يمتزج انقصافُ الخبز الجاف بعذوبة صوتها: "بالأمس، أرادت أن تحكي قصة غريبة كانت أُمّها قد رَوتها لنا. رجَوتها ألاّ تكرّرها لطفلتَي. إنها قصة مثيرة للاضطراب. قاسية. لكنها ذات تأثير سحريّ! وابنتاي ما زالتا أصغر من أن تفهماها." تبتلع جرعةً من ماء الكوب الذي كانت قد جاءت به لترطِّب عينَي رجُلها.

"هل تعرف أن ليس في عائلتنا إلا فتيات. سبع فتيات! ولا صبيّ! ما أثار سُخط أهلنا. ولهذا السبب روَتْ لنا الجدّة تلك القصّة، روَتها

لأخوتي ولي. لطالما ظننتُ أنّها اخترعت تلك القصّة من أجلنا. لكنّ عمّتي قالت لي إنها سمعت تلك القصة لأول مرّة من فم أُمّ جدّتها.“

تضع قطعة بصل ثانية على كِسْرَة خُبزٍ ثانية.

”أيّاً يكن الأمر، في البدايةَ حذّرتنا جدّتنا قائلةً إن قصّتها كانت حكاية سحرية يمكن لها أن تجلب إما السعادة وإمّا الشقاء في حياتنا الحقيقية. هذا التحذير أخافنا، غير أنه أثارنا في الوقت نفسه. عندها راح صوتها يرنّ مع خفقان قلوبنا: ”كان ياما كان، كان يوجد ملك. ملك فاتن جميل. ملك شجاع، غير أنه لا يشغله في الحياة إلاّ هاجسٌ واحد: هو أن لا تكون له بنت أبداً. وفي ليلة عُرسه تنبّأ له المنجّمون أنّه إذا ما أنجبت امرأته بنتاً، فإنّ هذه البنت سوف تلوِّث شرف التاج. ولسخرية القدر، لم تنجب امرأته إلا البنات. وكلّما ولِدتْ بنتٌ أمرَ الملكُ الجلاّد أن يقتلها!“.

لِفرط ما كانت المرأة مأخوذةً بذكرياتها، اكتسب وجهُها ملامح سيّدة عجوز – ملامح جدّتها، بلا ريب – تروي هذه القصة لأحفادها.

”قتل الجلاّد البنتَ الأولى، ثم الثانيةَ. ومع الثالثة أوقفه صوتٌ ضعيف خرج من فم الوليدة. توسّلتْ إليه أن يُبلغ أمّها بأنّها إذا ما تركتها على قيد الحياة فستكون لها مملكتها الخاصة! أربك هذا الكلامُ الجلاّد فهبّ خفيةً إلى الملكة وحكى لها ما رأى وما سمع. ومن دون أن تنبِسَ الملكة بكلمة ذهبت في الحال لرؤية هذه المولودة التي أُعطيت موهبة الكلام. عندها أمرت الجلاّد، مبهورةً ومرعوبةً في آن، أن يُهيِّئ عربة ليهربوا بعيداً عن البلد. وعند منتصف الليل بالضبط غادرت الملكة والوليدة والجلاد المدينة خُلسةً قاصدين بلاداً بعيدة.“

لم يصرفها شيء عن روايتها، ولا حتى الأعيرة الناريّة التي أُطلقت من مكان قريب من المنزل.

"مرّت سنوات. وفي إحدى الغزوات التي قادها الملك، صمدت في وجهه مملكةٌ صغيرة تحكُمها ملكةٌ عادلة، شُجاعة ومُسالمة. ورفض الشعب اعتداء هذا الملك الأجنبيّ. هذا الملك المتغطرِس! عندئذٍ أمر الملك بإحراق البلد. ونصح وزراء المملكة مَلكتَهم بمقابلته ومفاوضته. لكنّ الملكة رفضت هذه المقابلة. وأكّدت أنّها تفضّل أن تَحرُق هي مملكتها على أن تذهب إلى تلك المفاوضة. عندئذ تدخّلت ابنتها، التي يقدّرها الشعب تقديراً عالياً، ليس لجمالها الذي لا مثيل له فقط، لكن لذكائها وطيبتها النادرة أيضاً، وطلبت من أمّها أن تسمح لها بالذهاب لمقابلة الملك. عندما استمعت الملكة إلى ابنتها، أصبحت كالمجنونة. وشرعت في الصُّراخ، لاعنةً بصوتٍ عالٍ العالم كلّه. جفاها النوم. وراحت تدور في القصر على غير هدى. ومنعت ابنتها من مغادرة غرفتها أو التدخّل. ولم يتوصّل أحد إلى فهم تصرّفاتها. ومع كلّ يوم يمضي كانت المملكة تغرق شيئاً فشيئاً في نكبةٍ هائلة. وتصبح تغذيتها بالماء نادرة. عندئذ قرّرت ابنتُها، التي لم تكن أكثر فهماً من غيرها لحالة أمّها، أن تقابلَ الملك رغم المنع. وذات ليلة قصدت، بمساعدة وصيفتها، خيمة الملك. صُعِق الملك بهذا الجمال السماوي وأحبّ الأميرة حُبّاً جُنونياً. وعرض عليها ما يلي: سوف يتنازل عن هذه المملكة إذا ما تزوّجته. قبلت الأميرة التي أعجبت هي أيضاً بجمال الملك وجاذبيته. وأمضيا الليلة معاً. وفي الصباح الباكر عادت، مظفَّرةً، إلى القصر لتخبر أمَّها بلقائها مع الملك. ولِحسن الحظ، لم تعترف لها بأنّها أمضت الليلة في خيمته أيضاً. وبمجرّد

أن علمت الملكة بأن ابنتها قابلت الملك ضاقت عليها الدنيا. فقد كانت مستعدّة لتقبُّل كلّ مصائب العالم، إلاّ هذه المصيبة. هدّها الخبر، فأخذت تصيح: "قدر! قدر ملعون" وأُغمي عليها. أمّا الابنة التي لم تفهم بعد شيئاً مما يدور في رأس أمّها، فتوجّهت نحو الرجل الذي رافق المملكة طول حياتها، وسألته عن سبب حالتها. عندئذ أفضى إليها بهذه القصة: "أيّتها الأميرة العزيزة، كما تعلمين، أنا لستُ والدك. في الحقيقة أنت ابنة هذا الملك الغازي! وأنا كنتُ جلاّداً في خدمته..." وكشف لها الحقيقة كلّها. وخلص إلى هذه النتيجة الغامضة الملغَزة. "هذا هو، يا أميرتي، مصيرنا. إذا ما اعترفنا للملك بالحقيقة، نصبح، وفقاً للقانون، محكومين بالموت شنقاً. وتصبح رعيّة مملكتنا كلها عبيداً له. وإذا ما قاومنا مطلبه تُحرق مملكتنا. وإذا ما تزوّجته، ترتكبان المحارم، وهذه خطيئة لا تُغتفر! نصبح كلّنا ملعونين ومعاقبين من الربّ." كانت الجدّة تتوقف عن الكلام عند هذه اللحظة من القصّة وكنا نطلُب منها أن تروي لنا التَّتمَّة، فتقول: "للأسف، يا حفيداتي، أنا لا أعرف نهاية هذه القصّة. و لم يعرفها أحدٌ حتّى الآن. يقال إنّ الذي، أو التي، سوف يعرف هذه النهاية سيحيا حياةً مَصونة من أيّ بلاء". ولمّا لم أكن مقتنعة حقاً، كنتُ أقول لها عندئذٍ إنّه إذا لم يعرف أحد نهاية هذه القصّة فلا يمكن أن تُعرَف النهاية الصحيحة. فتضحك بحزن وتقبّلني على الجبهة وتقول: "هذا ما يُسمَّى اللُّغز، يا صغيرتي. كل نهاية ممكنة، أما معرفة النهاية الصحيحة والصائبة... فهنا يكمن اللُّغز. وكنت أسألها بالتالي إذا ما كانت هذه القصة حقيقية أو لا. فتجيبني: قلتها لك: "كان، ياما كان..." كان سؤالي هو نفس السؤال الذي طرحته هي عندما كانت صغيرة على جدّتها، فكانت هذه تجيب:

"هذا هو كلّ اللُّغز، يا صغيرتي، هذا كلّ اللُّغز. شغلتني هذه القصة على مدى سنوات. وكانت تمنعني من النوم. وفي كل ليلة كنت أتضرّع إلى الله أن يُلهمني نهاية هذه الحكاية! نهاية سعيدة لكي يمكنني أن أعيش حياةً سعيدة. كنت أروي لنفسي كل شيء وأيّ شيء. وما إن أجِدَ فكرةً حتى أهرع إلى جدتي لأقولها لها. فكانت تهزّ كتفَيها وتقول: "هذا ممكن، يا ابنتي. هذا ممكن. سوف تَرين في سِني حياتك إن كنت على صواب أو لا. الحياة هي التي ستقولها لك. لكن مهما رأيتِ فلا تقوليه لأحد أبداً. أبداً! لأنه، كما في كل حكاية سحرية، كل ما تقولينه يمكن أن يحدُث. إذاً، احرصي على الاحتفاظ بتلك النهاية لنفسك".

تأكل قطعة خبز، وقطعة بصل. "ذات مرّة سألتُ أباك إن كان يعرف تلك القصة فأجاب بالنفي. عندئذٍ، رويتها له. وفي النهاية، بعد صمت طويل، قال هذه الكلمات العذبة "لكن، يا ابنتي، من الوهم أن تفكري في إيجاد نهاية سعيدة لتلك القصة. لا يمكن أن توجد لها نهاية سعيدة. لأنّ ارتكاب المحارم قد وقع، والمأساة واقعة حتماً."

في الشارع، يُسمَع صياحُ أحدهم: "قِف!" ثم طلقٌ ناري. وخُطى هاربة.

تُكمِل المرأة: "باختصار، بدّد والدك أوهامي. لكن، بعد بضعة أيام، في الصباح الباكر، حينما كنت أحمل له طعام الفُطور، رجاني أنّ أجلس إلى جانبه لكي يحدّثني عن تلك الحكاية. تكلّم فاصلاً كلّ كلمة عن الأخرى: يا ابنتي، فكّرت كثيراً. في الواقع يمكن أن توجد نهاية سعيدة. ولقد هممتُ أن أرتمي بين ذراعيه، وأُقبّل يَديه ورِجلَيه، لكي يُفضي إليّ بتلك النهاية. غير

أنّني تمالكتُ نفسي طبعاً. نسيتُ أمّك وطعامَ فُطورها، وجلستُ أمامه. في هذه اللحظة كان جسدي كلُّه أُذناً عملاقة صاغية له، جاهلة كلَّ الأصوات الأخرى، وكلَّ ضجيج آخر. لم يبقَ إلا الصوت المرتجف والرصين لوالدك الذي، بعد أن ابتلع جُرعةً كبيرة مصوِّعة من الشاي، قال لي: "لايجاد نهاية سعيدة، هذه القصة، يا ابنتي، تتطلّب، كما في الحياة، تضحيةً. بعبارة أخرى، تتطلّب تعاسة أحد ما. لا تنسَي أبداً: كلُّ سعادة تُسبِّب تعاستَين." ولماذا؟! سألت مندهشةً بسذاجة. أجابني بكلماته البسيطة: "يا ابنتي، لِسُوء الحظ، أو لِحُسن الحظ، لا يستطيع الجميع بلوغَ السعادة، أكان في هذه الحياة، أم في هذه القصة. إن سعادة بعض الناس تسبِّب تعاسة آخرين. هذا شيء مُحزن، لكن هكذا تجري الأمور. في هذه الحكاية تلزمك إذاً تعاسة وتضحية لكي تصلي إلى نهاية سعادة. لكنّ حُبَّك لنفسك، والحبَّ الذي تحملينه للآخرين، يمنعانكِ من التفكير في ذلك. هذه القصة تتطلّب جريمة قتل. قتل مَن؟ قبل الإجابة، قبل قتلِ أحدهم، يجب أن تطرحي على نفسك سؤالاً آخر: مَن الذي ترغبين في أن ترَيه سعيداً، حيّاً؟ الأب – الملك؟ الأمّ – الملكة؟ أو البنت – الأميرة. حالما تطرحين هذا السؤال يتغيَّر كلُّ شيء، يا ابنتي، فيكِ، وفي تلك القصّة. من أجل ذلك، يجب أن تتخلَّصي من ثلاثة أنواع من الحب: حُبّ الذات، وحُبّ الأب، وحُبّ الأمّ!" – لماذا؟ سألته. مكث صامتاً، وهو يرنو إليَّ بعينيه الصافيتَين اللتين تلمعان من خلف نظّارته. لا رَيب في أنّه كان يبحث عن كلمات مفهومة لي. ثم قال: "إن كنتِ إلى جانب الفتاة يمنعكِ الحبُّ الذي تحملينه من أن تتخيّلي انتحار الفتاة. كذلك لا يسمح لك حُبُّ الأب بالتفكير في أن البنت ترضى بالزواج، وفي ليلة الزِّفاف تقتل والدها في فراش الزوجِية. أخيراً، يمنعك

حُبُّ الأمّ من التفكير في مقتل الأُمّ لكي تسمح لابنتها بالعيش مع الملك، من دون أن تُطلعها على الحقيقة." ترك لي بِضعَ لحظات للتفكير. وابتلع جُرعة كبيرة أخرى من الشاي ثم قال: "بالطريقة ذاتها، إذا ما قُمتُ أنا، بصفتي أباً، بوضع نهاية لتلك القصة، سيكون ذلك تطبيقاً دقيقاً للقانون. سوف أعطي أمراً بقطع رأس الملكة، والأميرة، والجلاّد، لكي ينال الخونة عقابَهم، ولكي يُدفَن إلى الأبد سِرُّ ارتكاب المحارم." سألته: ماذا ستقترح الأُمّ؟ بعد أن ابتسم تلك الابتسامة الصغيرة الخاصة به، قال لي: "يا ابنتي، لا أعرف شيئاً عن الحبّ الأمومي ولا يمكنني أن أقترح عليكِ حَلَّه. أنت نفسك، أنت الآن أُمّ. ويعود لك أن تقولي ماذا يكون هذا الحلّ. غير أن تجربتي في الحياة تقول لي إنّ أُمّاً مثل الملكة تُفَضّل أن ترى مملكتها مدمَّرةً وشعبها عبيداً على أن تكشِفَ سِرَّها. الأمُّ تتصرّف وفقاً للأخلاق. تمنع ابنتها من الزواج بأبيها." يا إلهي، كم كنتُ متأثّرة بسماع تلك الكلمات الحكيمة. أنا التي كنتُ أبحث حتماً عن نهاية مُتسامِحة، سألتُه إنْ يمكن لمثل هذه النهاية أن توجد. في البدء قال نعم – ما عزّاني وشدَّ من عزيمتي –، لكن سرعان ما عنَّفني قائلاً: "يا ابنتي، قولي لي، في هذه القصة مَن يملك القُدرة على المُسامحة؟ أجبتُ ببراءة: الأب. هزّ رأسَه قائلاً: لكنْ، يا ابنتي، إنّ الملك الذي قتل أولاده من لحمه ودمه، والذي دمّر في أثناء غزواته مُدناً وأهلك سُكّاناً، والذي ارتكب المحارم، هو مُذنب مثل الملكة. أما هي، فقد خانت الملك، والقانون، طبعاً. لكنْ لا تَنْسَي أنّها هي نفسها كانت مخدوعة من قِبَل ابنتها الوليدة والجلاّد. قبل أن أفارِقه، اسْتَنتجتُ، وقد استبدّ بي اليأس: إذاً، لا توجد أيّ نهاية سعيدة! فقال لي: بلى، لكن، كما قلتُ لك، شرط القبول بالتضحية والتخلّي عن ثلاثة أشياء: حُبّ الذات،

وقانون الأب، وأخلاق الأمّ. سألته، وقد اختلط عليّ الأمر، إذا ما كان هذا يبدو له قابلاً للتحقُّق. فأجابني بمنتهى البساطة: "لا بُدّ من المحاولة، يا ابنتي. هذه المناقشة تركتني مرتبكة وشغلني التفكير فيها لأشهُر. وأدركتُ أن ارتباكي ناجِم عن شيء واحد هو: صِحّة كلامه. كان والدك يعرف شؤون الحياة حقَّ المعرفة."

تناولت قطعةَ خُبز أخرى، مع قطعة بصل أخرى، وابتلعتهما بصعوبة.

"عندما أفكّر في أبيك يزداد احتقاري لأُمّك. تركتْهُ مُنزوياً في غرفة صغيرة، رطبة، حيث كان ينام على حصير من نباتِ الأسَل. وكان أخوتُك يعاملونه كمجنون. وذلك ببساطة متناهية لأنّه اكتسب حِكمةً عظيمة. لم يفهمه أحد. في البداية، أنا أيضاً، كنتُ أخشاه، ليس بسبب ثرثرة أمّك وأخوتك بشأنه، بل لاستذكاري ما كانت عمّتي قد عانته من حماها. غير أنّني تقرّبت منه شيئاً فشيئاً. بكثيرٍ من الخشية. ولكنْ بفُضول غامض في الوقت عَينه. فُضول يتعذّر تحديده. فُضول مُهيّج تقريباً! لعلَّ ما دفعني نحوه هو ذلك الجزء منّي المسكون بعمّتي. هو الرغبة في أن أعيش أنا التجربة التي عاشتها هي. هذا مخيف، لا؟"

مُنفَعِلةً ومُتألِّمَةً، أنهتْ بصلَتها وخُبزَها البائتِ. نفختْ على القنديل لإطفائه.

نامت.

عندما تَعِبت الأسلحة وسكتت، بزغَ الفجرُ. رمادياً وساكناً.

بعد بضعة أنفاس، عقِب الأذان، تردّد وقعُ أقدام حائرة في ممرّ الباحة الموحل. اقترب أحدُهم من المنزل وقرع باب مدخل الرواق. فتحت المرأة عينَيها. استمرّ القرع. نهضتْ، وَسْنانة. واتجهتْ نحو النافذة لترى من هو ذلك الذي لا يجرؤ على الدخول من دون أن يقرع.

في ضباب الفجر الداكن، ميّزتْ ظِلاً مُعمَّماً ومُسلَّحاً. جذبت كلمةُ نعم التي نطقت بها المرأةُ الخيالَ نحو النافذة. كان وجهه مخفياً وراء طرف عمامته. وصوته الأضعف من خياله يُتَعْتِع: "هـ هـ هل يـ يـ يمكن... أن أدخل؟" كان صوتاً أبحَّ لمراهِق، هو صبيّ البارحة نفسه. حاولت المرأة أن تتبيَّن ملامحَه، لكنّ الضوءَ الرماديَّ الخافت حال دون أن تتعرَّف إليه. أومأت برأسها موافقةً قبل أن تقول: "الباب مفتوح". وبقيت في مكانها تراقب مسارَ الخيال بِمُحاذاة الحيطان، وفي الرّواق، وعلى عتبة الباب. رأت الملابس ذاتها، والطريقة نفسها في الإطلالة عبر فُتحة النافذة، والحياء عَينه. هذا هو، بلا أدنى ريب، صبيُّ البارحة. مكثَتْ تنتظر مُتأمِّلةً. وجد الصبيُّ صعوبةً في ولوج الغرفة. تسمَّر في إطار الباب وحاول أن يسأل: "بِك بِك بكم..." لم تفهم المرأة كلمة مِمّا تمتم به.

– ماذا تريد؟

– بِك بِك... ثم بُحَّ صوتُه. وتسارع نُطقه: بِك بِك... بِكم؟" لا جدوى. التقطت المرأة أنفاسَها وتقدّمت خُطوة نحو الصبي "اسمع، أنا لستُ مَن تظُنّ. أنا..." وقاطعتها صرخة الصبيّ العنيفة أولاً: "اخـ... اخـ... رسي" والهادئة تالِياً: "بِك بِك... بِكَم؟". حاولت أن تتراجع غير أنّ سبطانة البندقية المركوزة إلى بطنها مَنعتْها. تركت الصبيّ ريثما

يهدأ، وتابعت بلطف: "أنا أُمّ..." لكنّ إصبع الصبيّ التي على الزِّناد منعتها من المتابعة. فسألت مُسْتَسلِمة: "كَمْ معك؟". مَدَّ يداً مرتجفة إلى جَيبه وأخرج منها بعض الأوراق المالية ورماها عند قدمَيها. تراجعت المرأة خُطوةً والتفتت لتلقي نظرةً خاطفة على المخبأ. كانت الستارة الخضراء مُنفرِجَة قليلاً. غير أنّ العتمة تُزيل الشكّ في حضور الرجُل. ثم انزلَقت على الأرض، حيث تمدّدت على ظهرها، وباعدت بين ساقَيها. وانتظرت. شُلَّ الصبيّ. "طيِّب، تعال، وَأنهِ ذلك بسرعة!" قالت وقد عِيل صبرُها.

وضع سلاحه أسفل الباب. وتقدَّم بِخُطى مُتردِّدة. وانتصب فوقها. أخذته قشعريرة داخلية جعلتْ أنفاسَه متقطّعة. وأغمضت المرأة عينَيها.

بحركة نزِقة ارتمى عليها. "على مهل!" قالت المرأة بصوت مُختنِق. أمسك الصبيُّ المتهيِّج بساقَيها على نحوٍ أخرق. أمّا هي فقد صُعِقت وظلت جامدة تحت الرهزات المحمومة لهذا الجسد الفتيّ الأرعن، الذي يحاول عبثاً، ورأسه مطمور في شعرها، أن ينزع سِروالَها. وانتهى بها الأمر إلى أن نزعته بنفسها. وأنزلت سرواله. وما إن مسَّ عُضوه فخذَيها حتّى أنَّ أنَّةً خرساء، مختنقاً وقد ضاقت أنفاسه في شعر المرأة، التي أبقت عينَيها مُطبقتَين وقد امتقع لَونُها.

ما عاد يتحرَك. ولا هي.
أخذ يتنفّس من أعماق رئتيه. وهي أيضاً.

مرَّت لحظةٌ من الجمود التام قبل أن تهُبّ نسمةٌ خفيفة وتُحرِّك

الستائر. أخيراً فتحت المرأة عينَيها وهمست بصوتٍ ضعيف، لكنّه رؤوف: "انتهيت؟" غير أنّ صرخة الصبيّ الجريحة زعزَعت كيانَها: "اخـ... اخـ... رسي!" و لم يجرؤ على أن يرفع رأسه الذي كان لا يزال مطموراً في شعر المرأة الأسود. ثم راح تنفُّسه يهدأ شيئاً فشيئاً.

ألقت المرأة، التي لزمت الصمت، نظرةً في مُنتهى الأسى على فُرجة الستارة الخضراء.

بقي الجسدان المتشابكان، المُلتصِقان بالأرض، مُسمّرَين مُدّة طويلة. ثم أحدثت هَبَّةُ ريح حركةً خفيفة في هذه الكُتلة المشكّلة من جسدَين. كانت يد المرأة هي التي تحرّكت. وراحت تداعب الصبيّ باحتشام.

لم يعترض. فاستمرّت في مداعبته بحنانٍ أُموميّ. "الأمر ليس خطيراً" قالت تواسيه. لم يصدُر عن الصبي أيُّ ردّ فعل. تابعت: "هذه... المرّة الأولى؟" بعد صمتٍ طويل من ثلاثة أنفاس، بطيئة، هزّ رأسه، الذي ما زال مطموراً في شعر المرأة، موافقاً بخجلٍ ويأس. ارتفعت يد المرأة نحو رأس الصبي ولمستْ عمامته: "لا بدّ من البدء يوماً ما". أجالت نظرَها في المكان لترى أين وضع السلاح. كان بعيداً. التفتت إلى الصبي الذي ما زال في الوضع نفسه. حرّكت ساقَيها بِرفق. لا مقاومة. "طيّب، هل ننهض؟". لم يُجب "قلتُ لك، الأمر ليس خطيراً... سوف أساعدك". ورفعت كتِفَها برويّة لكي تميل على جنبها وتتخلّص من جسد الصبيّ المُنهَك. ثم إنّها عملت على إعلاء سِروالها، بعد أن نظّفت فخذَيها بِطرف ثوبها، وجلست.

أخيراً تحرّك الصبيّ أيضاً. وأخذ يرفع سِرواله مُتجَنّباً النظر إلى المرأة، وجلس مُديراً ظهره لها، وعينُه على بُندقيته. كانت عِمامتُه منحلّة، ووجهُه مكشوفاً. عيناه صافيتان، واسعتان، محفوفتان بسواد الكُحل. فتى بهيُّ الطلعة. نحيلُ الوجه أسيلُه. أمْرَدُ تقريباً. أو غضُّ الشباب. "لديك عائلة؟" سألته المرأة بصوت غير مميَّز. أوما الصبيّ أن لا، ولبِس عمامته بسرعة مخفياً نصفَ وجهه. ثم هبَّ واقفاً ليأخذ سلاحه ويَفِرُّ من المنزل على وجه السرعة.

مكثت المرأة جالسةً في المكان نفسه. وبقِيَت هناك وقتاً طويلاً. من دون أن تنظُر إلى الستارة الخضراء. ثم اغرَورَقت عيناها بالدموع، وانطوى جسدُها. ضمّت رُكبتيها بين ذراعَيها، وأخفت رأسها، وأطلقت صرخةً. صرخةً واحدة ممزِّقة.

هبَّت نسمةٌ – مثل جوابٍ على صرختها – رفعت الستارة لكي تسمح للضباب الرمادِيّ باجتياح الغرفة.

عدَّلت المرأة جلستها، ببطء. غير أنها لم تنهض. و لم ترفع بعدُ نظرها نحو الستارة الخضراء. لم تجروْ.

نظرُها مُثبّت على الأوراق المالية المدعوكة التي بعثرها النّسيم.

البرد أو الانفِعال، الدموع أو الرُّعب، جعلت تنفُّسها مُتقطّعاً. وكانت ترتعِش.

أخيراً، هبَّت واقفة، وأسرعت لتتوارى في الرواق، وتدخل حُجرة الحمّام، حيث اغتسلت، وبدّلت ثيابها. ثم ظهرت مجدّداً، في حُلَّة خضراء وبيضاء، وهيئة أكثر صفاء.

جمعت الأوراق المالية وعادت إلى مكانها على مُقربة من المخبأ. ثم أغلقت فُرجة الستارة من دون أن يلتقي نظرُها بنظرة الرجل الزائغة.

بعد بضعة أنفاس صامتة، اندفعت من أعماقها فجأةً ضحكةٌ مريرة بعثت الرعشةَ في شفتَيها. "وهكذا... هذا لا يحصُل إلاّ للآخرين! وعاجِلاً أو آجلاً لا بُدَّ أن يحصل هذا لنا نحن أيضاً..."
عدّت الأوراق المالية، "المسكين"، ودسَّتْها في جيبها. "أحياناً، يتولَّد لديّ الانطباع أنّ من أشقّ الأمور أن يكون الإنسان رجلاً؟" توقّفت بعض الوقت. من أجل التفكير أو في انتظار جواب. ثم تابعت مع نفس الابتسامة المغتصَبة: "هذا الصبيّ جعلني أفكّر في بداياتنا نحن... ولتعذرني لأنّني أكلّمك عن هذا الأمر بهذه الطريقة. أنت تعرفني... ذكرياتي تهاجمني دائماً على حين لا أنتظرها. أو حين لم أعُد أنتظرها. تنقضُّ عليَّ مهما فعلتُ. الجيّد منها والرديء. وهذا يتسبّب بلحظات مثيرة للضحك. كما حصل منذ قليل... عندما كان الصبيّ في قمّة الاضطراب، تراءت أمامي فجأةً ليالي زِفافنا المتأخّر... أُقسِم لك أنّ تفكيري فيك كان لا إرادياً. أنتَ أيضاً كنتَ أخرقَ مثل هذا الصبيّ. طبعاً، كنتُ أجهل هذا الأمر

آنذاك. كنتُ أعتقد أنّه هكذا يجب أن يكون، كما كنتَ تفعل، أنت. لكنْ، غالباً ما كنتُ أُلاحظ أنّك لم تكن مسروراً. عندها أشعر بأني مُذنبة. وأقول في نفسي إنَّ ذلك يحصُل بسببي، وإنّني لا أعرف كيف أضاجِع. بعد سنة، اكتشفتُ أنْ لا... وأنّ السبب يعود إليك، فأنت لا تعرف أن تُعطي شيئاً. تذكَّر عددَ الليالي التي ضاجعتني فيها وتركتني على... على اضطرابي. عمَّتي ليست على خطأ في قولها إنّ أولئك الذين لا يعرفون كيف يمارسون الحُبَّ يصنعون الحربَ." وامتنعت عن المتابعة.

أمضت فترة استراحة طويلة. ثم اندفعت قائلةً: "لكنْ، قُلْ لي، ما هي اللَّذة في اعتقادك؟ أن ترى انبِجاسَ قذارتِكَ؟ أن ترى انبجاسَ الدَّمِ وأنت تمزِّق غِشاءَ البَكارة؟"

خفضت رأسها، وعضّت شفتَها السُّفلى. مغيظةً. استبدَّ الغضبُ بيدها، وشدَّها، وحوَّلها إلى قبضة انسحقت على الجدار. وتأوّهت. سكتت.

"عفواً، هذه المرّة الأولى التي أكلِّمك فيها على هذا النحو. أشعر بالخَجل. لا أدري حقّاً من أين يخرج هذا. قبلاً، لم أفكّر أبداً في كلّ هذا. صدِّقْني. أبداً." سكتت بُرهةً، ثم استأنفت قائلة: "حتّى عندما كنتُ أراكَ، أنتَ، الوحيدَ الذي يلتذّ، لم يكن ذلك يُغيظني، بالعكس. كان يسرُّني. وكنتُ أقول إنّ هذه هي طبيعتنا. وأن هذا هو الفارِق بيننا. أنتم الرجال تلتذّون، ونحن النساء نُسَرُّ بِتَلذُّذكم. وكان ذلك يكفيني. لكن كان عليَّ أنا وحدي أن أمنح نفسي اللَّذة وذلك بأن... أُلامِس

جسدي. نزَفتْ شفتُها، فمسحتها ببِنْصَرها، ثمّ لحَسْتها بلسانها. "ذات ليلة، فاجأتني. كنتَ نائماً. وأنا أداعِب نفسي مديرةً ظهري لك. ربّما استيقظت على لُهاثي. فانتفضتَ وسألتني عمّا أفعل. كنت مُلتهبةً ومرتعشة... عندها قلتُ لك إنّني محمومة. وصدّقتني. غير أنّك أرسلتني إلى الغرفة الأخرى لأنام مع الطفلتَين. يا لكَ من وَغْد!". سكتتْ خوفاً أو حياءً. وعلَتْ خدَّيها حُمرةٌ انحدرتْ برفقٍ إلى عُنقها. واحتجبتْ نظرتُها وراء جُفونها التي أطبقتْ حالمةً.

نهضت بِخفّة. "طيّب، يجب أن أذهب إلى هناك. لا بدّ أن ينشغل بال الطفلتَين وعمّتي!"

قبل أن تذهب، ملأتْ كيسَ الحقن بالماء المُحلَّى – المُملَّح، وغطّتْ رجْلَها، وأغلقت الأبوابَ، وتوارت تحت خِمارها، في الشارع.

الغرفة، والمنزل، والحديقة، وكلُّ ما هنالك غرق في الضباب، واختفى تحت هذا المِعطف الرماديّ الكئيب.

لم يحدُث شيء. و لم يتحرّك أحد، ما عدا العنكبوت التي استقرّت منذ بعض الوقت بين عوارض السَّقف المُتعفِّنة. تحرَكتْ ببطء وتكاسُل. وبعد جولة قصيرة على الجدار، عادت إلى شبكتها.

في الخارج:

حيناً يُطلقون النار.
حيناً يُصلُّون.
حيناً يسكتون.

عند الغسق، يقرع أحدُهم بابَ الرواق.
ما مِن صوتٍ يدعوه للدخول.
يواصِل.
ما مِن يدٍ تفتح له الباب.
يذهَب.

جاء الليل وذهب، حمل معه الغيومَ والضباب.

عادت الشمسُ. ومع أشعّتها المنيرة، أعادت المرأةَ إلى الغرفة.

بعد أن ألقت نظرة تفقُّدية شاملة على الغرفة، أخرجت من حقيبة كيسَ حقنٍ جديداً وقارورةً جديدة لقطرة العين. واتجهت مباشرةً نحو الستارة الخضراء وأزاحتها لتجد رجُلَها. كانت عَيناه مُغمضتَين نصف إغماضة. سحبت الأنبوبة من فمه، ومدّدته أكثر، وقطرت في عينَيه قطرة واحدة، اثنتَين؛ واحدة اثنتَين. ثم غادرت الغرفة لتعود بعد قليل حاملةً الحوض البلاستيكي ممتلئاً بالماء، ومِنْشَفة، وملابس، غسلت رجُلَها، وبدّلت ثيابَه، وأعادته إلى رُكْنه.

شمّرت كُمّه بعناية، وبدأت بتنظيف باطن ذراعه حيث غرزت

المِسْبارَ، ثم عاينت القطّارة، وعادت أدراجَها مع كلّ ما يجب أن تأخذه إلى خارج الغرفة.

تُسمع جَلبتُها وهي تغسِل البياضات وتُعلِّقها في ضوء الشمس، ثم تعود وبيدها مكْنَسة راحت تنظّف بها البساط والفُرش.

لم تكن قد أنهت مهمّتها حين سمعت قرعاً على الباب. تقدّمت نحو النافذة وسط سحابة من الغُبار. "مَن هذا؟" مرّة أخرى لاح شبح الصبي الصامت مُلتفّاً بردائه. أسْبَلت المرأة ذراعيها بعياء: "ماذا تريد أيضاً؟" مَدَّ الصبيُّ نحوها بعضَ الأوراق المالية. بقيت هي جامدة، ولم تنبِس بكلمة. ثم اتجه الصبيُّ نحو الرِّواق، وتبعته المرأة. تبادلا همساً كلمات غير مُدركة، وانسلاّ إلى إحدى الغُرف.

في البداية رانَ الصمت، وشيئاً فشيئاً تناهت وَشْوَشات... وأخيراً صدرت تأوّهات مخنوقة. ورانَ الصمتُ مجدّداً لبعض الوقت. ثم سُمِع صريرُ باب يُفتَح، ووَقْعُ أقدامٍ تَحُثُّ الخُطى في الخارج.

أمّا المرأة فقصدت حُجرة الحمّام حيث اغتسلت، وعادت بِحَياء إلى الغرفة، فأنهت ترتيبَها، وخرجت.

تردّد صدى خُطواتها على بلاط المطبخ من حيث أخذت ترتفع تدريجاً ضوضاء الغاز الذي ينشر سحابته المصوِّتة على المنزل.

بعد أن أعدّتْ طعامَ غدائها، جاءت لتتناوله في الغرفة، من المِقْلاة مباشرةً.

كانت هادئة، ووديعة.

"هذا الصبيُّ يثير الشفقة!" قالت بغتةً بعد اللقمة الأولى.

"لكنْ، لستُ أستقبله لهذا السبب... من جهة ثانية، جرحتُ شعوره اليوم، وكدْتُ أدفعه إلى الذهاب، المسكين! أصابتني نَوبةُ ضحك، فظنّ أنّني أسخر منه... طبعاً في ذلك شيء من الصحّة... لكنّ السبب الحقيقي يعود إلى تلك العمّة الشيطانية. قالت لي مساء أمسِ شيئاً رهيباً. كنتُ قد حدّثتُها عن هذا الصبيّ الذي يُتَعْتِعُ، والذي يفرغ بسرعة. عندئذ..." ضحكتْ ضحكة داخلية جدّاً، بلا صوت، "عندئذٍ قالت لي إنّ هذا الصبيّ يحتاج إلى النُّصح" قطع كلامَها الضحكُ، لكنه ضحكٌ صاخبٌ هذه المرّة. وتابعت: "يجب أن يُنصَح بأن يُجامِعَ بلسانه ويتكلّم بقضيبه!" انفجرتْ بالضحك ومسحتْ دموعَها، "كان التفكير في ذلك أمراً فظيعاً في تلك اللحظة... لكنْ ما العمل؟ ما إنْ شرع في التعتعة حتى خطرت على بالي تلك العبارة. وضحكتُ. أمّا هو فقد ارتعب... حاولتُ أن أتمالك نفسي... لكنْ كان ذلك مُتسحيلاً. وازداد الأمر سوءاً... لحُسْن الحظّ..." وبعد لحظة: "أو لِسُوء الحظّ، انصرف تفكيري فجأةً إلى مكان آخر..." لحظة صمت أخرى، "فكّرتُ فيكَ... فانقطع الضحك بغتةً. وإلاّ كان يمكن للوضع أن يتطوّر بصورة فظيعة... لا ينبغي أن نجرح مشاعر الشبّان... لا ينبغي السخرية بمتاعهم... لأنّهم يربطون رجوليّتهم بقضيبهم الذي ينتصب، بطوله، وبمُدَّة قذفهم، لكن..." نحّت تفكيرَها. واحمرّ خدّاها. وتنفّستْ من أعماق رِئتَيها. "حسناً، انقضى الأمر... ومع ذلك شارفتُ الكارثة... كارثة أخرى إضافية.

أنهتْ غداءها.

بعد أن أرجعتِ المقْلاةَ إلى المطبخ، عادت لتتمدّد على الفراش. غطّت عينَيها بباطنِ ذراعها. ومرّرت فترةً طويلة من الصمت، حافلَةً بالتفكير، لكي تعترف مُجدَّداً: "أيْ نعم، هذا الصبيُّ جعلني أفكّر فيك أيضاً. يُمكنني أن أؤكّد مرّة أخرى أنّه أخرق مثلك. عدا أنّه ما زال في بداياته، ويتعلّم بسرعة! أمّا أنت، فلم تتغيّر أبداً. يمكنني أن أقول له ماذا يفعل، وكيف يفعل. لو كنتُ قد طلبتُ منك كلَّ هذا... يا إلهي! لهشمتَ وجهي. ومع ذلك فهذه أشياء بدهيّة... يكفي المرءَ أن يُصغي إلى جسده. لكنْ أنت، لم تُصغِ إليه أبداً. أنت لا تُصغي إلاّ إلى روحك". تنتصِبُ وتتّجه بعنف نحو الستارة الخضراء: "هذا ما أوصلتْكَ إليه روحُك. جُثّة حَيَّة. تقترب من المخبأ: "إنّ روحك اللَّعينة هي التي تبقيك مُسمَّراً بالأرض، يا حجرَ صَبْري!" تلتقط أنفاسَها، "وليست روحُك البَلْهاء هي مَن يحميني اليوم. ليست هي مَن يُغذّي الطفلتَين." تُزيح الستارة. "أتعلم كيف هي روحك في هذه اللحظة؟ أين هي؟ إنّها هنا، مُعلّقة فَوقك تماماً". تُشير إلى كيس الحقْن. "نعم، إنّها هنا، في هذا السائل المُحلَّى - المُملَّح، وليست في أيّ مكان آخر". تنفُخ صدرَها: "إنّ روحي هي التي تمنحني شرفي، إنّ شرفي هو الذي يحمي روحي. تفاهة! انظر، هو ذا شرفُك الذي انتهكه فتىً في السادسة عشرة من عُمره. هو ذا شرفك الذي يَنتهِكُ روحَك!" وبحركة خاطفة تُمسِكُ بيَده وترفعها قائلةً: "الآن، إنّ جسدَك هو الذي يُقاضيك. يُقاضي روحَك. مِن أجل ذلك أنت لا تتألّم في جسدِك. لأنّك تتألّم في روحك. هذه الروح المعلّقة التي

ترى كُلَّ شيء، وتسمع كلَّ شيء، والتي ما عادت تُسَيطر على جسدك."
تتركُ يدَه التي تهوي هامدةً على الفراش. تدفعُها ضحكةٌ مكتومة نحو الجدار، فتتَمالك نفسَها: "شرفُك لم يعُد سِوى قطعة من اللحم! أنت نفسك استعملتَ هذه الكلمة. لكي تطلُب منّي أن أتغطّى كنتَ تصرُخ: "استُري لَحْمَكِ"! في الواقع، لم أكن سِوى قطعة من اللحم حيث تُقحِم عُضوَك القذر. وما ذلك إلاّ لِتُمزِّقه، وتُدميه." تسكتُ مبهورة الأنفاس.

ثم تنهض فجأةً، وتخرُج من الغرفة، ويُسمَعُ وقعُ خُطاها في الرّواق جيئةً وذَهاباً. "لكن ماذا دهاني أيضاً؟ ماذا أقول؟ لماذا؟ هذا ليس طبيعيّاً، لا، هذا ليس طبيعيّاً..." ترجِع إلى الغرفة: "هذه ليست أنا. لا، لستُ أنا مَن يتكلّم... هذا شخصٌ آخر يتكلّم بدلاً مني... بلِساني. تلبَّسني. أنا مَمْسُوسة. تلبَّستني شيطانة حقّاً. وهي التي تتكلّم. وهي التي تمارس الحُبَّ مع الصبيّ... هي التي تأخذ بِيَده المرتعشة وتضعها على نَهْدَيّ... على بطني، بين فخذَيّ... كلّ هذا، تفعله هي! وليس أنا! يجب أن أطردها خارج جسدي! يجب أن أرى الرجُلَ الحكيمَ، أو المُلاّ، لأعترف لهما بكلّ شيء. ولكي يطرُدا تلك الشيطانة اللاّبِدة فيّ!... كان أبي على حقّ. إنّ ذلك الهِرَّ هو الذي يُوَسْوِسُ لي. هو الذي حضَّني على أن أفتح قفصَ السُّماناة. أنا مَمْسُوسة، وذلك منذ زمنٍ بعيد!" ارتمتْ في مخبأ الرجل وشرعتْ في البكاء: "لستُ أنا مَن يتكلّم!... أنا تحت تأثير تلك الشيطانة... لستُ أنا... أين القُرآن؟" تُذْعَرُ: "حتّى أنّها سرقت القُرآن، الشيطانة! هذه فَعلتُها!... نعم، إنّها هي، سرقت الريشةَ أيضاً!"

بحثتْ تحت الفراش. عثرت على مِسْبَحتها السوداء. "يا الله،

أنت وحدك القادر على إبعاد الشيطانة: المُؤَخِّر، المُؤَخِّر..." تُسبّح، "المُؤَخِّر..."، تلتقطُ خِمارَها، "المُؤَخِّر..."، تغادر الغرفة، "المُؤَخِّر..."، تخرج من البيت، "المُؤَخِّر...".

صوتُها لم يَعُد مسموعاً.

و لم ترجع.

في ساعة الغسق، دخل أحدُهم الباحة وقرع بابَ مدخل الرّواق. لم يُجِبْهُ أحد، و لم يفتح له أحد. لكنْ بدا أنّ الدخيل بقيَ في الحديقة هذه المرّة. ثم تناهت قرقعةُ أخشاب، واحتكاكُ حجارة تتصادم، ربّما كان في سبيله إلى السرِقة، أو التدمير، أو التعمير. غداً تعرف المرأة عندما تعود مع أشعّة الشمس التي تنفُذ في ثقوب السماء الصفراء والزرقاء على الستارة.

هبط الليل.

أعتمت الحديقة. وذهب الدخيل.

طلعَ النهار. وعادت المرأة.

مُمْتَقعةً، فتحت باب الغرفة وتوقّفت لحظة لكي تُعاين أقلَّ أثَر لمرور. لا أثَر. دخلت الغرفة متحيِّرة وتقدّمت حتّى الستارة الخضراء. وأزاحتها برفق. ما زال الرجُل هناك. عيناه مفتوحتان. وأنفاسُه منتظمة بالوتيرة نفسها. وكيسُ الحقن فارغ حتى منتصفه. والنقاطُ تسيل كما كانت، على إيقاع تنفّسه، أو تساقُط حبّات المِسبَحة السوداء بين أنامل المرأة.

تهاوت على الفراش "هل أصلح أحَدٌ البابَ المُفضي إلى الشارع؟".

سؤال موجّه إلى الجدار. وانتظار بلا طائل. كما يحصُل دائماً.

نهضت، وغادرت الغرفة، من دون أن تُزايلَها الحيرةُ، وتفحصت الغرفَ الأخرى، والقَبو. صعدتْ مُجدّداً. وعادت إلى الغرفة منذهلةً "لكن، لم يمرّ أحد!" قالت وقد أنهكها عياءٌ متزايد، وانهارت على الفراش.

ما مِن كلمة أخرى.

ما من حركة غير التسبيح. ثلاثَ دورات. مئتَين وسبعين حبَّة. من دون أيّ اسم من أسماء الله الحُسنى.

قبل أن تشرع في الدورة الرابعة، تداركت فجأةً: "هذا الصباح جاء أبي ليراني مرّةً أخرى... لكنْ هذه المرّة لكي يتّهمني بسرقة ريشة الطاووس التي كان يستعملها شارة تعليم لصفحات القُرآن. ارتعبتُ. كان يتميّز غيظاً. وأنا أرتعد خوفاً." هذا الخوف الذي لا يزال يُلاحَظُ اليومَ في نظرها اللاَّئذ بأركان الغرفة. "لكن مضى زمن طويل..." يتمايل جسدُها. وتُتابع بحزم "مضى زمن طويل على سرقتي إيّاها" تَهُبُّ واقفة "أنا أهذي!" تُتمتِمُ، بهدوء أولاً، ثمّ سريعاً جدّاً، وبِتَوتّر، "أنا أهذي. يجب أن أهدأ. يجب أن أسكت. لا تَقْوَى على الثبات في مكان، ولا تكُفّ عن الحركة، عاضّة إبْهامَها، ونظرها مُشتَّت. "نعم، حكاية تلك الريشة الرديئة... هي التي جعلتني مجنونة. ريشة الطاووس تلك. في الأصل، لم يكن ذلك، إلاّ حُلماً. هذا هو، حُلم، لكنّه بالغ الخصوصيّة. هذا الحُلم كان يعتادني كلَّ ليلة عندما كنتُ حاملاً بابنتي الأولى... في كلّ الليالي، كنت أرى الكابوس عَينه: أراني أضَع صبيّاً.

صبيّاً له أسنان، وقادراً على الكلام من يومه. كانت له ملامح جدّي... كان هذا الحُلم يُعذّبني، ويُرهِبني... كان الطفل يقول لي إنّه يعرف أحدَ أسراري الكبيرة." تكفّ عن الحركة. "نعم، أحد أسراري الكبيرة! وإذا لم أُعطه ما يريد باح بهذا السرّ للجميع. في الليلة الأولى طلب ثديَيَّ. ونظراً لأسنانه رفضت إعطاءه إيّاهما... عندئ أخذ يصرُخ." تُغطّي أُذنَيها بيدَيها المُرتجِفتَين "ما زلتُ أسمع صُراخَه حتّى اليوم. وأخذ يكشف بدايةَ سرِّي. في النهاية رضختُ. أعطيتُه ثديَيَّ. فصار يَرضعُهما ويعَضُّهما بأسنانه... وكنت أصرُخ... وأبكي في أثناء نومي..."

مكثتْ أمام النافذة، مديرةً ظهرِها لرجُلها: "لا بدّ من أنّك تتذكّر ذلك. لأنّك في تلك الليلة طردتَني مرّة أخرى فأمضيتُ الليلةَ في المطبخ." جلستْ أسفلَ الستارة المزركشة بالطيور المهاجِرة. "في ليلة أخرى حلَمتُ أيضاً بذلك الولد... هذه المرّة طلب مني أن أجلُبَ له ريشةَ الطاووس الخاصة بأبي... لكن..." طرق أحدُهم البابَ. فخرجت المرأة من أحلامها، ومن أسرارها، ونهضت لترفع الستارة. كان الطارق هو الصبيّ. قالت له المرأة بحزم: "لا، ليس اليوم! أنا..." فقاطعها بهذه الكلمات المهشّمة: "أأأ صـ... لحتُ... الباب." استرخى جسدُ المرأة: "آه هذا أنت إذن! شكراً." انتظر الصبيُّ أن تدعوه للدخول. لكنّها لم تقل شيئاً. "أسـ... أستطيع..." قالت المرأة متضجّرةً "قلتُ لك، ليس اليوم..." اقتربَ الصبيُّ: "ليـ ليـ ليس م م من أجل..." أومأت المرأة برأسها أن لا وأضافت: "أنا أنتظر شخصاً آخر..." اقترب الصبيُّ خُطوةً أخرى "لـ لـ لا أريد..." قاطعته المرأة وقد نفدَ صبرُها: "أنت لطيف، لكنْ أنا، تعلمُ، يجب أن أعمل..." بذل الصبيُّ كثيراً من الجهد لكي

يتكلّم بسرعة، لكنّ تَعْتَعتَه تعاظمت: "لـ لـ لا... عـ عـ عمل!" استَسْلَم. تراجع إلى الوراء وجلس أسفل جدار لكي يَحْرَدَ كفتىً صغير مغتاظ. خرجت المرأة مُرتبكةً لكي تلاقيَه أمام باب مدخل الرِّواق. "اسمع، تعالَ بعد الظهر، أو غداً... لكنْ ليس هنا..." ألحّ الصبيُّ وقد غدا أكثر هدوءاً: "أ أ أُريد أن أكـ أكـ... لِّمكِ..." رضخت المرأة، أخيراً.

دخلا ولاذا بإحدى الغُرف.

كانت همساتُهما الأصواتَ الوحيدة التي تَرِنّ وتلفتَ الانتباه في هذا الجوّ الكئيب المقطّب الذي يَنغَمِر فيه المنزلُ، والحديقةُ، والشارِعُ وحتّى المدينة...

انقطعت الهمساتُ بعد وقتٍ قصير ورانَ صمتٌ طويل. فجأةً سُمِعَ اصطفاقُ بابٍ يُغلَقُ بعُنف، ونَحيب الصبيّ الذي كان يجتاز الرِّواق، والباحة، ليختفي في الشارع أخيراً. ثمّ وقعُ أقدام المرأة المغيظة التي دخلت الغرفة صارخةً: "ابن الشرموطة! ابن الحرام!" ذرعت الغرفة عدّة مرّات قبل أن تجلِس. مُمتقِعةً. حانِقة. وتابعت: "عندما أفكّر في أنّ ابن الكلبة هذا تجرّأ على أن يبصُق في وجهي حينما قلتُ له إنّني شرموطة!" انتصبتْ. تنضح بالحقد جسداً وصَوتاً. تقدّمت نحو السِتارة الخضراء: "أتعلم، هذا الشخص الذي جاء في ذلك اليوم مع هذا الصبيّ المِسكين، والذي رماني بكلّ النُّعوت، إذاً هو بالذات، أتعلم ماذا فعل؟" ركعت أمام الستارة: "احتفظ بهذا الصبيّ الصغير من أجل ملاذّه الخاصّة! اختطفه عندما كان أحدثَ سِنّاً. كان يتيماً هائماً في الشوارع. ربّاهُ لكي يضع بين يديه كلاشنكوفَ نهاراً، وخلاخِلَ في القدمَين مساءً. كان

يُرَقِّصه. ابن الشرموطة!" انسحبت لتجلس أسفل الجدار. وتأخذ أنفاساً عميقة من هذا الجو الثقيل الذي يفوح بروائح البارود والدخان. "إن جسدَ الصبيّ مشوَّهٌ تماماً! عليه آثار حروق في كل مكان، على الفخذَين، على الرِّدْفَين... شيء فظيع! هذا الشخص يُحرِّقُ جسدَ الصبيّ بِسَبطانَة بُندقيّته!" انهمرت دموعُها على وجنتَيها، وجرت ببطء في التجاويف المحيطة بشفتَيها عندما تبكي، وسالت على ذَقنها لتنزلق إلى عُنقها وتنتهي على صدرها، من حيث انطلق صُراخها: "الأشقياء! البؤساء!"

خرجت.
دون أن تَنْبِسَ بكلمة.
دون أن تنظر إلى شيء.
دون أن تلمس شيئاً.

لم ترجع إلا في اليوم التالي.

لا جديد.
الرجل – رجُلها – ما زال يتنفّس.
وضعت له سائلاً جديداً للحقن.
قطرتْ في عينيه قطرة واحدة، اثنتَين، واحدة، اثنتَين.
وهذا كلّ شيء.
جلستْ متربِّعةً على الفراش. وأخرجت من كيس بلاستيكيّ قطعةَ قُماش، وقميصَين صغيرَين، وعُلبةً للوازم الخياطة بحثت فيها عن مِقصّ،

اقتطعت به أجزاء من القماش لترقع القميصَين.

كانت بين الفَينة والأخرى تَسْتَرِقُ النظرَ إلى الستارة الخضراء، بَيد أنّ عينَيها غالباً ما كانتا تلتفتان بقلق نحو الستارة المزخرفة بالطيور المهاجرة، والمنفرجة قليلاً على نحو يسمح برؤية الباحة. وكانت أقلُّ ضجّة توقفها عن العمل، فترفع رأسها لتنظر هل دخل أحد أم لا.

ولا، لم يأتِ أحد.

مثلما يفعل كل يوم، عند الظهر، رفع المُلاّ الأذان للصلاة. وكان الوحيُ موضوعَ عِظته هذا اليوم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]. "يا أخواني، هذه أولى آيات القرآن الكريم التي نزل بها الوحيُ على النبيّ (ص) عن طريق الملاك جِبريل...". توقفت المرأة عن عملها، وأصغت لسماع البقيّة: "... عندما كان رسول الله يجاور في غار حِراء، في قلب جبلِ النور، كان نبيُّنا لا يعرف القراءة ولا الكتابة. وبفضل هذه الآيات تعلَّم كلَّ شيء. قال الله تعالى بشأن رسوله ما يلي: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[2] استأنفت المرأة الخياطة. وتابعَ المُلاّ تلاوتَه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ

١ سورة العلق، ١–٥ (م).

٢ آل عمران، ٣–٤ (م)

وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1] توقّفت المرأة عن الترقيع مجدّداً وأصغت إلى الآيات القرآنية متأمّلةً: قال الله تعالى مُخاطباً نبيّنا: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] لم تُصغِ المرأة للبقية، وركّزت نظرها على ثنيات القميصَين. بعد بُرهة طويلة، رفعت رأسها وتكلّمت بصوت حالم: "هذه الكلمات، كنتُ قد سمعتها من والدك. كان يروي لي دائماً هذا المقطعَ الذي كان يُعجبه كثيراً. كانت عيناه تلتمعان ذكاء. وترتعش لحيته ويجتاح صوتُه الغرفةَ الصغيرة الرطبة، قائلاً: "ذات يوم، نزل محمد (ص) من الجبل حيث كان مُجاوراً، يصلي ويتأمل، ودخل على زوجته خديجة لِيُخبرها بما كانَ يرى ويسمع. فأخبرها بأنّه كان لا يمرّ بحجر ولا شجر إلّا ويسمع صوتًا بالسلام عليه. ثم جاءه جبريل عليه السلام وهو نائم في صورة رجل بين السماء والأرض، وقال له: "يا محمّد، أنت رسول الله، وأنا جبريل" وكان النبيّ لا يعرفه. فطمأنته خديجة وسألته أن يُعلِمَها به إذا جاءه مرّة أخرى. وذات يوم جاءه جبريل فأخبر به خديجة فقالت له: قُم فاجلسْ في حِجْري، ففعل. فسألته: هل تراه؟ قال: نعم. ثم ألقت خمارَها وانكشف شعرها وسألته: هل تراه؟ قال: لا. قالت: أبشِر، إنّه لملاكٌ وما هو بشيطان. لأنه لو كان شيطاناً لما أبدى أيّ احترام لها عندما انكشف شعرُها ولما اختفى". وكان أبوك يضيف إلى هذه الرواية قولَه إنّ مُهمّة

---

١ آل عمران، ١٤٤ (م)

٢ الأعراف، ١٨٨ (م)

خديجة كانت أن تكشفَ لمحمّد معنى نبُوَّته، وأنّه لم يكن واهماً وأنّ ما يراه كان حقّاً وليس من قبيل المظاهر الخادعة."

سكتت، وغرِقت في صمت عميق، مستأنفةً ببطء عملها في ترقيع القميصَين الصغيرين.

لم تخرج من صمتها إلاّ مع صرخة حادّة عندما وخزت إصبعها بالإبرة. مَصّت الدمَ واستأنفت الخياطة. "هذا الصباح... جاءني أبي مرّة أخرى وأنا في غرفتي. كان يتأبّط القُرآن، قُرآني، الذي كان هنا... نعم، هو الذي أخذه... إذاً جاء يطالبني بريشة الطاووس. لأنّها لم تكن داخل القُرآن. قال إنّ هذا الصبيّ – الذي أستقبله هنا، عندي – هو الذي سرق الريشة. ويجب حتماً أن أطلبها منه إذا جاء". نهضتْ، واتجهتْ نحو النافذة "آمُل أن يأتي".

خرجت من البيت. عبرت الباحة، وتوقفت خلف الباب المُفضي إلى الشارع. وكان عليها طبعاً أن تُلقي نظرة على الشارع. لا شيء هنالك. سوى الصمت. لا أحد. ولا حتى ظلّ عابر. عادت من حيث أتت. وقفت تنتظر أمام النافذة، وانعكس خيالُها على الطيور المهاجرة التي تجمّد طيرانها في السماء الصفراء والزرقاء.

مالت الشمسُ للمغيب.

والمرأة يجب أن تعود إلى حيث ابنتاها.

قبل أن تغادر المنزل، تريّثت في الغرفة لتقوم بمهمّاتها المعتادة.

ثم ذهبت.

هذه الليلة، لم يُطلقوا النار.

وفي ضوء القمر الباهت والبارد، كانت الكلاب الشاردة تعوي في كلّ أرجاء المدينة.

كانت جائعة.

وما من جُثث هذا المساء.

عند انبلاج الفجر، قرع أحدُهم البابَ المُفضي إلى الشارع، ثم دخل الباحة، واتّجه مباشرة نحو باب مدخل الرواق، حيث وضع بعضَ الأشياء على الأرض وعاد أدراجَه.

عندما سقطت آخرُ نقطة حقن في القطّارة وجرت في الأنبوب لتدخل في شرايين الرجل، عادت المرأة.

بدتْ أشدَّ ما تكون إنهاكاً حين ولجت الغرفةَ. عينان مكتئبتان، ونظرة كدِرَة، وسَحْنَة شاحِبة، وشفتان مُزرَقّتان وأقلّ اكتنازاً. ألقت خِمارَها في أحد الأركان ثم تقدّمت وفي يدها صُرَّة حمراء وبيضاء مزيّنة بأزهار التفّاح. وبعد أن تفقّدت حالة رجُلها، كلّمته كما تفعل دائماً: "مَرَّ أحدُهم وترك هذه الصُّرَّة أمام الباب." ثم فتحتْها، فوجدتْ فيها حبوب قمح مَشوِيّة، ورمّانَتين ناضِجتَين، وقطعتَين من الجُبن، وورقة مَطويّة فيها سلسلة ذهبية. "إنّه هو، الصبيّ!" ارتسمت على وجهها الحزين أمارة رضى عابرة. "كان عليَّ أن أُسرع. آمُل أن يمرّ ثانية".

ومضت تقول وهي تُبدِّل شرشفَ الرجل: "سوف يمرّ... لأنّه قبل أن

يأتي إلى هنا جاء لرؤيتي في بيت عمّتي... عندما كنتُ في السرير. جاء بهدوء، دون أن يُحدِث ضجّة. كان يرتدي ملابس بيضاء كلّها. كانت سيماؤه طاهرة. بريئة. وما عاد يَتعتِع. جاء ليفسِّر لي لماذا كانت ريشة الطاووس مُهمّة جدّاً عند أبي. كشف لي أنّ ريشة هذا الطاووس... كانت قد طُرِدَت مع حوّاء من الجنّة. ثمّ غادر. حتّى أنّه لم يترك لي فرصة لأطرح عليه سؤالاً". بدّلت كيسَ الحقن، وضبطت المدّة الفاصلة بين نُقطة وأخرى. ثمّ جلست بالقرب من رجُلها. "أرجو أن لا تحقدَ عليّ لأني أحدّثك عنه وأستقبله هنا في البيت. لا أدري ما الذي جرى، لكنّه، كيف أقول؟... حاضِرٌ فيَّ بِقوّة. أُحِسُّ تقريباً الإحساسَ نفسه الذي خبرتَهُ حيالك في بداية زواجنا. لا أدري لماذا! وإن كنتُ أعلم بأنّه هو أيضاً يمكن أن يصبح كريهاً مثلك. أنا على يقين من ذلك. أنتم الرجال، حالما تمتلكون امرأة تتحوّلون إلى وحوش". مدّت ساقَيها. "إنْ رجعتَ يوماً إلى الحياة، إنْ وقفتَ على قدمَيك، هل تعود ذلك الوحشَ الذي كُنْتَه؟" سكتتْ بُرهةً، فيما مضى تفكيرُها في مجراه "لا أعتقد. أقول في نفسي إنّ ما رَويتُه لك يمكنه أن يُغيّرك. أنتَ تفهمني، تُصغي إليّ. تتأمّل. أنتَ تُفكّر..." تقترب منه: "نعم، سوف تتغيّر، سوف تُحِبُّني. وستُمارِس الجنسَ معي كما أشتهيه. لأنّك اكتشفتَ الآن أشياءَ كثيرة. عنّي، وعنكَ. إنّك تعرف أسراري وقد أصبحتَ مشغوفاً بهذه الأسرار". تُقبّل عُنقه. "سوف تحترم أسراري. وأنا، سوف أحترم جسدَك." تَدُسُّ يدَها بين ساقَي الرجُل وتُداعِبُ عُضوَه. "لم يَسبِق لي أبداً أن لَمستُه هكذا... سُماناتك!" تضحك "هل تستطيع...؟ تضع يدَها داخل سِروال الرجل. وتختفي يدُها الأخرى بين فخذَيها هي. تلامِسُ شفتاها اللِّحيةَ، وتقارِب

الفمَ المُنفَرِج. تمتزج أنفاسُهما، وتتّحد. "حلمتُ بهذا... دائماً. كنت، عندما تلمسني، أتخيّل عُضوَك بين يدَيّ." وشيئاً فشيئاً تتقلّص المسافة بين أنفاسها، وتتجاوز إيقاعَ تنفُّس الرجُل. بينما تداعب نفسَها بيدها التي بين ساقَيها، بهدوء، ثمّ بتسارع، ثمّ بحِدّة. وتغدو أنفاسُها مُتقطّعةً، فلاهثة، فقصيرة، فصافِرَة.

صرخة.

تأوّهات.

ران الصمت، مُجدداً.

ومُجدَّداً، انعدمت الحركة.

غير أنفاس.

طويلة.

وبطيئة.

بعد بضعة أنفاس، خرقتْ تنهيدةٌ مخنوقة هذا الصمتَ فجأةً. وقالت المرأة للرجُل: "عفواً" وتحرّكت برفق. ودون أن تنظر إليه انفصلت عنه، وانسحبتْ من مخبئه، لائذةً بزاوية الجدار. أبقت عينَيها مُغمضتَين. و لم تفارق الرّعشةُ شفتَيها. وتأوّهت. ثم انبثقت الكلماتُ تدريجاً: "ماذا دهاني أيضاً؟" ضربت برأسها الجدار. "أنا مَمْسُوسة حقاً... نعم، أرى الأمواتَ... اللامنظورَ... أنا..." أخرجت من جَيبها المِسبَحةَ السوداء. "يا الله... ماذا تفعل بي؟" يتمايل جسدُها إلى الأمام وإلى الوراء، ببِطء، وانتظام. "يا الله، ساعدني على استعادة الإيمان! أزِلْ عني السحرَ!

خلّصني من وَهْمِ التَّهيُّوات والمظاهر الشيطانية الخدّاعة...» نهضت بغتةً. قامت بدورةٍ في الغرفة. قصدت الرّواق. جَلْجَل صوتُها في المنزل. ثمّ امتزجت كلماتُها بخرير الماء. كانت تغتسل.

عادت. بَهِيَّةً في ثَوبها الأُرجُوانيّ المزيّن ببعضِ الزخارف الخفيفة من سنابل القمح وأزهاره في جزئه الأسفل وعند الكمَّين.

جلستْ في مكانها قُرب مخبأ الرجل. وشرعت في الكلام بهدوءٍ وصفاء: «لم أذهب لرؤية الرجل الحكيم ولا المُلاّ. منعتني عمَّتي. أكّدت لي أنّني لا مجنونة ولا مَمْسُوسَة، ولا تلبَّستني شيطانة. وأنّ ما أقوله، وما أفعله، يُمليه عليَّ صوتٌ عُلْوِيّ، وهو الذي يُرشدني. هذا الصوت الذي ينبثق من حُنجُرتي، هو الصوت الكامن منذ آلاف السنين.

أغمضت عينَيها، وبعد ثلاثة أنفاس فتحتهما. ودون أن تلتفت تطلّعت في أركان الغرفة كما لو أنّها تكتشف هذا المكان لتوّها. «أنتظرُ مجيء أبي. يجب أن أروي لك كلَّ شيء، لمرّة أخيرة ونهائية، عن ريشة الطاووس.» يفقد صوتُها شيئاً من عُذوبته: «لكن يجب أن أستردّها أوّلاً... نعم، فبهذه الريشة سأكتب حكاية كلّ هذه الأصوات التي تنبثِق منّي والتي توحي لي!» تُصبح عصبيّة: «إنّها ريشة الطاووس تلك! لكن أين هو هذا الصبيّ؟ ماذا عساني أفعل برُمّانتَيه؟ بهذه السّلسلة؟ الريشة! أنا بحاجة إلى الريشة!» تنهض. تلتمع عيناها، مثل مجنونة. تفرّ من الغرفة. تُفتّش البيتَ. تعود منفوشة الشعر قد غطّاه الغُبار. ترتمي على الفراش قُبالة صورة الرجل. تتناولُ المِسْبَحةَ السوداء، وتشرعُ في التسبيح.

استأنفت كلامَها بصوتٍ عذب: «ريشة الطاووس هذه تلاحقني.»

انتزعتْ بأظفارها نُتَفاً من قُشارة الدهان التي انفصلت عن الجدار. "هذه الريشة تتسلّط عليّ منذ البداية، منذ أن حَلمتُ بذلك الكابوس. ذلك الكابوس الذي حدّثتُك عنه: ذلك الصبيّ الذي يُزعجني في حُلمي، ويقول إنّه يعرف سِرّي الكبير... بسبب هذا الحُلم ما عدتُ أرغب في النوم. وما لبث هذا الحُلم أن تسرّب تدريجاً إلى أوقات يقظتي... كنتُ أسمع صوتَ الصبيّ في بطني. في كلّ الأوقات. في كلّ مكان. في حُجرة الحمّام، في المطبخ، في الشارع... كان يكلّمني، ذلك الصبيّ، ويضايقني. كان يطالبني بالرّيشة..." لحستْ أطرافَ أصابعها المصبوغة بلونٍ أخضرَ مُزرَقّ من بقايا قُشارة الدهان. "كلُّ ما كنتُ أتمنّاه في تلك الأثناء هو أن أُسكِتَه. لكنْ كيف؟ صلّيت من أجل أن أُجهِضَ. من أجل أن أتخلّص من ذلك الصبيّ الملعون إلى الأبد! أنتم، جميعاً، كنتُم تعتقدون أنّني مُصابة بذلك الوسواس الذي يُصيب مُعظَم النساء الحوامل. لكنْ لا. ما سأقوله لك، هو الحقيقة... ما كان يقوله الولد، هو الحقيقة... ما كان يعرفه، هو الحقيقة. كان ذلك الصبيُّ يعرِف سِرّي. كان هو نفسُه ذلك السرَّ. حقيقتي السرّية. عندئذ قرّرتُ أن أخنُقه حالما أضعُه، بين ساقَيّ. من أجل ذلك لم أحاول الضغطَ لإخراجه. ولولا أنّهم خدّروني بالأفيون لكان الطفل قد اختنق في بطني. لكنّ الطفل رأى النور. وعندما استعدتُ الوَعي، ورأيتُ أنّ الطفل ليس صبياً – كما كان في حُلمي – بل فتاة، شعرت بارتياح عظيم! قلتُ في نفسي إن الفتاة لن تفضحني أبداً. أعلمُ أنّك تستميتُ لمعرفة سِرّي" التفتتْ. رفعت رأسها تُجاه الستارة الخضراء وزحفت مثل أفعى نحو الرجُل. ولمّا بلغت قدَميه بحثت عن نظرته التائهة: "لأنّ هذه الطفلة لم تكن منك!" سكتتْ،

مُتلهِّفةً إلى رؤية رجُلها وقد انهار أخيراً! وكالمعتاد لم يصدر أيّ ردّ فعل من قبله. عندئذ تجرّأت على إبلاغه: "نعم، يا حجرَ صبري، هاتان البنتان ليستا ابنتَيك!" انتصبتْ: "أتعلم لماذا؟ لأنّك أنت مَن كان عاقراً. وليس أنا!" جلست مُسْتَنِدةً إلى الجدار، في زاوية المخبأ تماماً، ووَجْهُها مُتّجه نحو الباب، مثل وجه الرجُل "كان الجميع يعتقد أنّني أنا العاقِر، وكانت أُمّك تريد منك أن تتخذ زوجةً أخرى. وماذا يكون مصيري أنا؟ سأصبح مثل عمَّتي. وفي تلك الآونة بالذات عثرتُ عليها، بأعجوبة. جاءت لتهديني السبيلَ". أغمضتْ عينَيها، وارتسم ظِلُّ ابتسامة على شفتَيها. "عندئذ قلتُ لأمّك إنّ ثمّة حكيماً كبيراً حقّق مُعجزاتٍ في هذا النوع من المشاكل. أنتَ تعرف القِصّة... لكنّك تجهل الحقيقة! باختصار، ذهبنا معاً لمقابلته والحصول على تعاويذة. أتذكّرُ كلَّ ما استطعتُ أن أسمعه من فم أُمّك في الطريق وكأنّه حصل بالأمس. نعتتني بكلّ الصفات. وراحت تزعق مكرِّرةً أنّ هذه هي فُرصتي الأخيرة! كلّفها الأمرُ بعض المال يومها. بعد ذلك، قصدتُ الحكيم مرّات عِدّة إلى أن أصبحتُ حاملاً. كما بسحر ساحر! إعلمْ، أنّ هذا الحكيم لم يكن سوى قوّاد عمّتي. زاوجني مع شخص عصبوا عينَيه. وكانوا يُغلقون علينا في الظلام الدامس. لم يكن مسموحاً له بأن يكلّمني أو يلمسني... من جهة ثانية، لم نكن عاريَين أبداً. كنا نُنزِلُ سروالَينا فقط، وهذا كل شيء. لا بدّ من أنه كان شاباً، غضَّ الشباب، وقويّاً. لكن من دون خبرة على ما بدا. وكان عليَّ أنا أن ألمسه، وأن أُقرّر متى يجب أن يَلجني. كان عليَّ أن أعلّمه كلَّ شيء هو أيضاً!... ما أجمل السيطرة على جسَد الآخر، لكنْ، في أوّل يوم، كان الأمر فظيعاً. كنّا مُنزعجَين كِلَينا، مُرتعبَين. لم أُرِد أن يعتبرني

عاهرة، فتصلّبتُ. وكان هو خجِلاً ومذعوراً، فلم يتمكّن، المسكين. لم يحصُل شيء. كنّا بعيدَين أحدنا عن الآخر، ولا نسمع سوى أنفاسنا المتقطعة. ثمّ إنّني انهرتُ. وصرختُ. فأخرجوني من الغرفة... وبقيت أتقيّأ طول النهار. كنتُ أريد أن أتراجع، لكنْ فات الأوان. تحسَّن الوضعُ في الجلسات التالية التي غدت أفضلَ فأفضل. غير أنّني كنتُ أبكي بعد كلّ مرّة، وأشعر بالذنب، وأكره الجميع. وكنتُ ألعنكم، أنت وعائلتك. ولكي تكتمل عذاباتيْ، كان عليَّ أن أنام معك في كلّ ليلة! والمُضحك في كلّ ذلك هو ما قامت به والدتك، بعد أن أصبحتُ أنا حاملاً، فقد كانت تقصد الحكيم من وقت إلى آخر لكي تحصُل على تعاويذ لألف سبب وسبب." تَنبعثُ من صدرها ضحكة مخنوقة. "آه، يا حجرَ صبري، إذا كان من الصعب أن يولد المرء امرأة، فمن الصعب أن يكون رجلاً أيضاً!" انفلتت من أعماق جسدها تنهيدةٌ طويلة. واستغرقت مُجدّداً في أفكارها. جنحت عيناها الكئيبتان. وقلّت الدماء في شفتيها اللتين كانتا تتحركان وهما تتمتمان بكلمات أشبه بصلاة. وفجأةً، شرعت في الكلام بصوت غريب مَهيب: "إذا كان كلّ دين هو حكاية كشْف، كشْف حقيقة، فإنّ حكايتنا نحن، يا حجرَ صبري، هي دين أيضاً. ديننا نحن!" تمشي. "نعم، إنّ الجسدَ هو كشفُنا." تتوقّف. "جسدانا نحن، أسرارهما، جِراحهما، مُعاناتهما، مَلذّاتهما..." تهرع نحو رجلها. "أيْ نعم، يا حجرَ صبري، أنت مريض، مشلول، تُعاني، وتصبِر، وأنا أكشف معاناتك، وصبرك. أنا صوتُك! أنا نظرُك! أنا يداك!" أزاحت السَتارة الخضراء كلّياً. وتقدَّمت خطوة لتكمِل خطابها. غير أنّ يداً، من خلفها، أمسكت بها. التفتت. كان رجُلها هو الذي يُمسك بها. لبثت بلا

حراك. مصعوقة. فاغرة الفم، على كلمات معلَّقة. ثم إنّ الرجل انتصب واقفاً على حين بغتة، كصخرة، صلبة وجافّة، رُفِعَتْ بحركة خاطفة.

"هذه... هذه أُعجوبة! إنّه البعث!" قالت بصوت مختنق رُعباً. "كنتُ أعلم أن أسراري ستعيدك إلى الحياة، إليّ... كنتُ أعلم...". جذبها الرجل إليه، أمسك بشعرها وضرب برأسها الحائط. سقطت أرضاً. لم تصرُخ و لم تبكِ. "قُضِيَ الأمر... إنّك تنفجر!". اخترقت نظرتُها الهاذية خُصلاتِ شعرها المبعثرة، وقالت بصوتٍ ضاحكٍ ساخر "حجرُ صبري انفجر!" ثم صاحت: "شكراً أيها الصبورُ! لقد تخلّصتُ من آلامي أخيراً"، واحتضنتْ قدمَي الرجل.

أمسك الرجل، ذو الوجه الهزيل والشاحب، بالمرأة مجدّداً، وأنهضها، ورمى بها عُرضَ الجدار حيث كان الخنجَرُ والصورة مُعلَّقَين. ثم دنا منها، وأمسك بها، وأخذ يرفعها على الجدار، وهي تنظر إليه مُنتشية. لامس رأسُها الخِنجَر، فالتقطتُه بيدها، وغرزته في قلب الرجل صارخةً. لم تخرج نقطة دم واحدة.

جذبَ الرجلُ، الذي ما زال متصلّباً وبارداً، المرأةَ بشعرها، وجرّها إلى مُنتصف الغرفة. ضربَ رأسَها بالأرض مِراراً، قبل أن يقصِفَ رقبتَها بحركة خاطفة.

زفَرت المرأة.

شهَق الرجل.

أغمضت المرأةُ عينَيها.

بقيت عينا الرجل تائهتَين.

قرع أحدُهم الباب.

تمدّدَ الرجلُ، والخِنجرُ مغروزٌ في قلبه، على فِراشه أسفلَ الجدار، قُبالة صورته.

احمرَّ وجهُ المرأة، احمرَّ بِدَمِها.

دخل أحدُهم المنزل.

فتحت المرأةُ عينَيها بهدوء.

هبَّتِ الريحُ وحرّكتْ أجنِحةَ الطيورِ المُهاجرة فوق جسدها.

شكر لكلٍّ من:
بول أوتشاكوفسكي – لورنس.
كريستين تيولّير
إيمانويل ديناور
ماريان مارشو
ثُريّا نوري
صابرينا نوري
رحيمة قاتل
على دعمهم، ورؤيتهم الشاعرية.

يختزل الكاتب الأفغاني عتيق رحيمي مأساة بلاده إلى غرفة ضيّقة حيث تسهر امرأة شابة على راحة زوجها، الذي كان مجاهداً في أكثر الحروب عبثيّة، بعد أن أصيب بطلقة ناريّة في رقبته. عينا الرجل مفتوحتان وجسده الهامد غارق في غيبوبة عنفه وآثامه، والمرأة تتلو على وقع تنفسّه صلواتها وأسماء الله الحسنى.

يغدو الرجل الغائب عن العالم حجر صبرها، وتغدو المرأة شهرزاد الأفغانيّة التي يتدفق من فمها المطبق سيلٌ من الكلمات اللاذعة المشحونة برغبات دفينة. تدخل في مصارحة جريئة ومناجاة هذيانيّة مع زوجها وتبوح له بأسرارها الأكثر خطورةً، متحدّيةً خوفها وخضوعها...

تمّ تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي.

ولد **عتيق رحيمي** في أفغانستان عام ١٩٦٢. أنهى دراسته الثانوية في كابول ثم طلب اللجوء إلى فرنسا عام ١٩٨٤.

ISBN 978-1-85516-957-9
9 781855 169579

DAR AL SAQI
دار الساقي